جمال البنا

نحو فقه جديد

ملخص الجزء الأول

منطلقات ومفاهيم فهم الخطاب الديني

إهـــــداء...

إلى الأستاذ المستشار

محمد شوقى الفنجرى

تقديراً لهمته العالية

وروحــه

الخيــــــــرّة ...

جمال البنا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

تصدير
تقدمه دار الفكر الإسلامى

—

هذا الكتاب – قضية الفقه الجديد – هو تلخيص واف لما جاء فى الأجزاء الثلاثة من كتاب "نحو فقه جديد" الذى ألفه الأستاذ جمال البنا خلال المدة من 95 حتى 1999 فى قرابة 700 صفحة.

ويتوقف الحكم على أى عمل يقدم للنــاس على أهمية هذا العمل. وضرورة القيام به وصـحة المعالجة التى عولج بها.

فإذا طبقنا هذه المعايير على هذا الكتاب لما صعب علينا التسليم بأهمية كبرى له، لأن الفقه الإسلامى يغطى مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فضلاً عن الأساس الإيمانى له، ولا يجادل أحد فى أهمية كتاب بمثل هذا المضمون. **أما ضرورة نشره فى هذا الوقت،** فلعل مما يشفع لذلك، بل يجعله أمر واجباً، هو أن أصول الفقه منذ أن وضعها الشافعى فى أوائل القرن الثانى للهجرة.. ومقاصد الشريعة التى وضعها الشاطبى فى القرن الثامن قد أخذا مأخذ التسليم. ولم يفكر أحد بعد مرور قرابة ألف عام فى إعادة النظر.. وهل يعقل أن ما وضعه هؤلاء الأئمة الإعلام وصل إلى حد الكمال الذى لا يتطلب تعديلاً أو حذفاً أو إضافة؟ وهل يجوز أن تهدر

التطورات الجذرية والتغييرات الجسيمة التى نالت الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية فى العالم أجمع على مذبح ما وضعه الأسلاف؟ وهل لا يعد هذا إهمالا لملكة الفكر وإغفالا لإعمال العقل والاعتماد كليا على ما وضعه الأباء والأجداد مع أن الآيات القرآنية تترى تأمر بإعمال العقل والفكر والنظر والتدبير وتنهى عن اتباع ما وضعه الآباء.. مما يضيق عن سرده المقام، وما نعتقد أنه لا يغيب عن فطنة القارئ فأين المردود العملى لهذه الآيات ؟ وحتى متى يقف الفكر الإسلامى هذا الموقف الجمودى الثبوتى وعواصف التغيير تكاد تقتلعه، وأمواج التطور تكاد تغرقه... وهو لا يملك لصدها إلا ما وضعه أسلافه منذ ألف عام ...

نــزعم أن هنــاك حاجة ماسة لنشر هــذا الكتــاب، بل إننا نؤكد أن هــذا تــأخر ســنوات طــوال للملابســات الــتى اكتنفت المجتمعـات الإسـلامية وانعكست على قياداته بما حـال دون أن يظهر فى ســـنوات خلت وأن نشـــره الآن إنما هو اســـتدراك لتخلف طويل..

ولعل النقطة الثالثة هى أهم نقـــاط تقـــييم العمل، أعـنى سـلامة المعالجـة، فـإذا كـانت المعالجة ناقصة أو مشوهة أو مغرضة أو سطحية أو أصيبت بما يحــول دون ســلامتها وموضــوعها.. فــإن هــذا يهبط بقيمة العمـل، ولعله بـدلاً من أن يكـون إضـافة نافعة أن يكون إثارة لشبهات وشكوك..

والحق أن تأخر معالجة أصول الفقه، مع أهميته الظاهرة، ومع الحاجة الماسة إليه تعود إلى صعوبة سلامة المعالجة، وأنها تتطلب "مواصفات" ليس من السهل أن تتوافر.

فقد يبدو للوهلة الأولى أن خير من يمكن أن يقــوم بهــذه المهمة هو الفقيه المتمكن الــذى أحكم هــذا الموضــوع ودرس دراسة عميقة محكمة ما وضعه أئمة المذاهب الفقهية وغــيرهم من مفســرين أو محــدثين.. إذ المفــروض أن يكــون مثل هــذا

الفقيه هو "أهل الذكر" وصاحب الاختصاص وأنه أكثر دراية بهذا كله من غيره ممن لا يحكمه إحكامه ولا يغوص إلى أعماقه...

ولكن إعـادة النظـر، والتـأنى قبل إصـدار الحكم يوضح أن مثل هـــــذا الفقيه المتمكن، أهل الـــــذكر والاختصـــاص، هو آخر من يفكر فى فقه جديـــد، وأنه أعجز من يمكن أن يقوم بذلك..

ذلك لأن التعمق فى الدراسة والإلمام بالتفاصيل يجعله حجه فيها يستطيع أن يرد على أى سؤال عنها لأنه يعلم كل شئ يتعلق بها، ولكنه لا يعلم شيئاً عن سواها لأن التخصص والتعمق حشا ذهنه بالتفاصيل بحيث لم يعد فيه مجال لفكر آخر، ومن المسلم به أن التخصص يكون على حساب سعة الأفق، وبقدر زيادة التعمق بقدر ما يضيق الأفق، ولأن الوصول إلى درجة التخصص يتطلب سنوات طويلة. وعادة ما يرتبط عندما يتم بمنصب فى المؤسسة الدينية كأن يكون أستاذا فى الجامعة، أو عميداً لكلية.. فما الذى يجعل هذا الشخص يفكر فى فقه جديد واعتزازه كله يعود إلى أنه أحكم فقه الأوائل. وأن منصبه الجامعى يربطه بالدراسات المقررة بالفعل. والوضع الواقع ؟ إنه لا يريد.. وإذا أراد لا يستطيع.

من هنا يتضح خطأ المقولة الشـــائعة والمنتشـرة والـتى يصـدعون بها آذاننا عن أهل الذكر وأصحاب الاختصاص، وأن الفقه لا يجـوز أن يكـون كلاءً مباحـاً يتحـدث عنه "كل من هب، ودب" فالحقيقة أن هــــؤلاء الســادة لا يقــدمون فقهــاً جديــداً، لأنهم يؤمنـــون بالفقه التقليــدى الــذى تعلمــوه صـــغاراً ودرســـوه كبـــاراً. وبه يصـــولون ويجولون..

فإذا كان فقهاء المؤسسة الدينية لا يستطيعون أن يفكروا فى فقه جديد، ولا يقدرون عليه إذا فكروا فيه، فهل

يستطيع ذلك أحد "الدكاترة" الذين تلقوا دراساتهم فى الغرب وعادوا ليشغلوا المناصب الرفيعة ؟ هؤلاء أيضاً لا يفكرون فى فقه جديد.. ولا يقدرون عليه إذا فكروا فيه لأن دراساتهم الأوربية – رغم أنها يمكن أن تقدم إضافة – إلا أنها – بعيدة كل البعد عن مجال الفقه الإسلامى وتجديده. من أجل هذا لم يتصد أحد منهم لولوج هذا الباب دع عنك أن دخولهم فيه سيخل بموازين القوى وفصل السلطات وسيعرضهم لموآخذات تمس أوضاعهم، وقد تودى بها..

وقد يكون الأساتذة الذين يحكمـون علم الاجتمـاع وتـاريخ الحضارات أقرب مفكـرى النخبة الحديثة إلى عـالم الفقـه، وقد يمكنهم بالفعل أن يســدوا ثغــرة ويقــدموا إضــافة، ولكن الأمر أعظم من ذلك بمراحــل، فضــلاً عن أن دراســاتهم للاجتمــاع والحضارات يغلب أن تكون ملتاثة بأفكار أوربية وثنية الجذور..

فهـؤلاء أيضا لا يصـلحون لمعالجة فقه جديـد. ولم يحـدث أن تقدم أحدهم لعلمه بأن دراساته لا تؤهله لذلك...

بل قد يمكن أن ننقل الموضوع نقلة "نوعية" عندما نقول إن موضوع الفقه الجديد ليس أمر دراسة نظرية، بل إن له جانبه العملى والواقعى. وأنه إذا لم يتوافر له هذا الجانب فيخشى أن يأتى الفقه الجديد "نظريا" لا يتجاوب مع طبيعة المجتمع الإنسانى، ومن ثم فيجب أن يكون له خلطة ما بالناس ومشاكلهم والعوامل التى تتحكم فى معالجة هذه المشكلات، بل قد يمكننا أن ندفع القضية إلى حد القول إن الذين يطلقون عليهم "كل من هب ودب" لهم حق ومصلحة فى طريقة معالجة هذا الموضوع الهام لأنه سينتهى بالتطبيق عليهم. وقد يكون فيه العديد من أحكام الجلد أو القتل أو السجن أو التحكم فى رزقهم فهم أصحاب حق – عملى ومباشر فى تجديد الفقه – وهو ما لا يتوافر فى الذين يضعون العمائم ويرون أنهم "أهل الذكر"..

وهذه الإشارة هى ما توجه النظر إلى أن المعالجة التقليدية لأصول الفقه كانت مجردة، عنيت بالمادة كنص واستخدمت المنطق الأرسطى الصورى بحيث ابتعد – باستثناء محاولات معدودة – عن الحياة والجماهير ومشاعرهم ومشاكلهم.

فإذا أريد الإصلاح فلابد أن يكـون للفقه خلطة بـالمجتمع، ومعايشة لجمـــاهير النـــاس فى أزقتهم، كما يتطلب ثقافة لها طـابع موسـوعى إنسـانى، ومعرفة بتجـارب الأمم السـابقة أو المعاصرة ويـدخل فيها النظم الاجتماعية والقانونية الـتى تطبق فى المجتمعات الأوربية، ففيها دون جـدال خـير كثـير وإضـافات عديـدة "نحن أحق بهـا" حـتى وإن تضـمنت سـوءات لأن النظم جميعاً لا تخلو من سوءات. وقد جاءت الحضـارة الأوربية بعـالم جديد، وتحديات جديدة فى هذا المجال.

ونحن بعد نعيش فى عصر أصبح العالم كله "قرية" وجعل السماوات كلها مفتوحة.. وبلغ بالمؤثرات الخارجية إلى درجة غير مسبوقة.

* * *

قد يكـــون هنـــاك كتب عن تجديد الفقه لا نعلم بها لأن القطيعة الثقافية فى العــالم العــربى والإســلامى بفعل النظم الحاكمة حالت بيننا وبين التعرف عليها. كما أن هنـاك محـاولات قــام بها البعض، ولكنها جزئية وتنصب على الفروعيــات وليس على "أصول الفقه".

وقد ألف الشيخ يوسف القرضـاوى كتابـاً باسم "الاجتهـاد فى الشـــريعة الإســـلامية" يعد من أفضل ما كتب فى هـــذا الموضوع، ويكشف فى الوقت نفسه أزمة تجديد الفقـه، ومـدى الحرج والمحرمات التى تكتنفه بحيث أنه ارتأى أن الاجتهـاد فى مجـال الفقه لا يتعـدى نـوعين: الأول الاجتهـاد "الانتقـائى" وهو يعنى به "اختيـار أحد الآراء المنقـول فى تراثنا الفقهى العـريض للفتوى أو للقضاء به ترجيحـاً له على غـيره من الآراء والأقـوال

الأخرى" والثانى وهو الاجتهـاد "الإنشـائى" وهو "اسـتنباط حكم جديد فى مسألة من المسـائل لم يقل به أحد السـابقين سـواء كانت المسألة قديمة أو جديدة".

وتعرض للمزالق التى ينزلق إليها العديد من دعاة الاجتهاد وانتقد بعض ما ذهبوا إليه مثل جواز استلحاق اللقطاء – الذى أخذت به المحكمة الشرعية العليا فى البحرين عام 83، وما اقترحه أحد الكتاب من اعتبار صيغة فاقطعوا أيديهما {المائدة 38،39} فى حالة السرقة، وصيغة والزانية والزانى فاجلدوا.. {النور 2} باعتبارهما للإباحة وليس للوجوب كما فى الآية يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين {الأعراف 31} وكذلك جواز زواج المسلمة بكتابى على أساس أن القرآن إنما حرم الزواج بالمشرك والكتابى ليس مشركاً.. وما ذهب إليه الدكتور شوقى إسماعيل شحاته والدكتور محمد شوقى الفنجرى من اعتبار البترول فى الدول العربية "ركازاً" يجب أن تؤخذ منه الزكاة. وكذلك تحريم الزواج بأكثر من واحدة وإباحة وضع "الباروكة" للسيدات.

وانتقد كـذلك ما ذهب إليه الـدكتور عبد الحميد متـولى أستاذ القانون الدستورى من اشـتراط أن يكـون الحـديث الـذى يعمل به فى المجال الدستورى متواتراً أو مشـهوراً. وأشـار فى لمحه خاطفة "ومن ذلك ما صـرح به شـيخنا العلامة الشـيخ محمد أبو زهرة رحمه الله فى ندوة التشريع الإسـلامى فى ليبيا من إنكار عقوبة الرجـم فى زنى المحصن (ص 144).

وقد رد الشـيخ القرضـاوى على هـذه الاجتهـادات بـردود قوية مسـتمدة من الأدلة الفقهيـة. ومن القاعـدة الـتى يأخذ بها **"حيث يوجد شرع اللـه، فثم المصـلحة"** ولو أنه لم يحصر اجتهـاده فى الأطر الفقهية المتبعـة، أو أصـول الفقه المقـررة.. وأخذ بما ذهب إليه أبن القيم **"حيثما يكـون العـدل فثم شـرع اللـه"** أو أخذ بما ذهبنا إليه من ضـرورة ضـبط السُـنة

بمعايير القـرآن والتميـيز بين الـوحى القـرآنى والـوحى السـنى الـذى لا يعطى للسُـنة تأبيد القـرآن.. نقـول لو لاحظ هـذا كله فلربما وجد مسوغاً لبعض هذه الاجتهادات المنبوذة.

وعلى كل حال – فإن هذه الاجتهادات التى أصلت عليها الشيخ القرضاوى سيفه تنم عن الطبيعة الجزئية لمعالجة الفقه. **أما بالنسبة لتجديد أصول الفقه** فهذا ما لم يتصد له أحد فيما نعلم باستثناء محاولتين فى هذا الصدد.. **قام بالأولى الدكتور حسن الترابى وعالج الثانية الشهيد سيد قطب**

وجاءت مساهمة الدكتور الترابى فى رسالة موجزه (حوالى 80 صفحة) من القطع المتوسط تحت أسم "تجديد أصول الفقه" ويبدو أن حجم الرسالة حال دون أن تتضمن رؤوس مواضيع هذا التجديد، واقتصرت على إيضاح ضرورة هذا التجديد – وهذا فى حد ذاته "يمثل قفزة" فى الفكر الذى يدلى به المشاهير. ويذكر للدكتور الترابى أنه أشار إلى الأثر السيئ للمنطق الأرسطى على الفقه الإسلامى، وأنه أصابه بالشكلية والصورية، ولا أعلم هل الدكتور الترابى هو السابق فى هذا أو أنه من السابقين. ولكن إشارته على إيجازها. تمثل إضافة منشئة.

ومع إيجاز الرسالة فقد تعرض الدكتور الــترابى للنقد من كثــير من الـدوائر المحافظة ولم تشـفع له ثقافته الرفيعـة، ولا كفاحه الجماهيرى فى الدعوة الإسلامية السودانية.

أما الشهيد سيد قطب رحمه الله فقد استبعد كل المحاولات التى توضع لإصلاح الفقه، أو تجديده، من منطلق أن هذا كله عبث ما دامت الشعوب المسلمة لم تستكمل العقيدة الصحيحة التى محورها – فى نظره – الحاكمية الإلهية. وأن هذه المحاولات ما هى إلا ترقيع. وتصليح فى الأوضاع القائمة، وتستر على النقص الرئيسى. وقد شرح هذه الفكرة فى تفسيره "ظلال القرآن" وفى كتاب "معالم الطريق" وكتاب

"الإسلام ومشكلات الحضارة" الذى قال فيه "إن محاولة وضع أحكام تشريعية فقهية إسلامية لمواجهة أقضية المجتمع الذى تعيش فيه البشرية، والذى ليس إسلاميا، لأنه لا يعترف بأن الإسلام منهجه، ولا يسلم للإسلام أن يكون شريعته.

إن محاولة وضع أحكـــام تشـــريعية لأقضـــية مثل هـــذا المجتمـع، ليست من الجد فى شـئ. وليست من روح الإسـلام الجادة فى شئ. وليست من منهج الإسلام الواقعى فى شئ...

إن الفقه الإسـلامى لا يسـتطيع أن ينمو ويتطـور ويواجه مشـــكلات الحيـــاة إلا فى مجتمع إســـلامى ! مجتمع إســـلامى واقعى، موجود فعلا، يواجه مشكلات الحياة التى أمامه ويتعامل معها، وهو مستسلم ابتداء للإسلام ! ".

الشهيد سيد قطب هنا، كالشيوعيين الـذين يضـيقون بكل المحـاولات لإصـلاح الديمقراطية والرأسـمالية، لأنهم يرفضـونها أصـلاً ويـرون أن هـذه المحـاولات بما فى ذلك تكـوين العمـال لنقابات وإصلاح نظم الانتخاب الخ.. إنما هى محاولات لمد حياة هذا النظام المطلوب القضاء عليه..

ولولا أن "الحاكمية الإلهية" استحوزت على الشهيد سيد قطب رحمه الله بحيث لم تدع له تصوراً آخر لأمكنه أن يقول إننا نرفض هذا الفقه، ومحاولات إصلاحه وتجميله وترقيعه لأنه لا يعود رأسا إلى القرآن الكريم، ولا الصحيح الثابت من السُنة، وإنما هو بناء تراكمى أقامته أجيال تلو أجيال من الفقهاء طبقاً لفهمهم وبحكم مهمتهم وبروح عصرهم، وبخضوعهم للنقص البشرى الذى لا يخلص منه أحد..

ومع أنه لم يقل هذا، فإن مسلكه يتضمن – فيما يتضمن – نقداً، أو حتى رفضا للفقه الشائع والمنتشر بين المسلمين. إذ من غير المعقول أن يكون الفقه الذى يطبقه المجتمع حسناً ثم يكون المجتمع فى "جاهلية" كالجاهلية الأولى..

* * *

وهكذا نـرى أن هـاتين المحـاولتين لم يسـفرا عن طائـل، فموجز الدكتور الترابى لا يشفى غليلاً، ونقد سيد قطب جاء فى تضـاعيف نقـده للمجتمع ككل وبـدا وكـأن تجديد الفقه لن يجد فارسه، وأن الأمر سيظل على ما هو عليه، وأن من الممكن أن تمضى المذاهب الأربعة ألف سنة أخرى بعد الألف الأولى..

ولكن...

إن الذى خلق الحقيقة علقما

لم يُخْل من أهل الحقيقة جيلاً

كما قال شاعرنا شوقى..

فقد قفز من المجهول كأنما انشقت عنه الأرض أو سقط من السماء رجل لم يضع على رأسه عمامة، ولم يدخل الأزهـر، أو أى جامعة أخرى، ولم يصل نفسه بحزب أو وزارة، ولم يرزق شـهره مدويـة، وإن عُـرف فى دوائر محـدودة، لأن صـلته الـتى شغلته ليل نهـار كـانت بالكتـاب الـذى عكف عليه من الخامسة من عمره حتى ناهز الثمـانين درس فيها القـرآن الكـريم مـراراً وتكراراً وألم بالسُنة النبوية [1] والأدب العربى من منابعه الأولى حـتى الكتابـات العصـرية وكـاد أن يحفظ المتنـبى وشـوقى. ثم مـــارس العمل التطـــوعى كتجربتيه فى الإصـــلاح الاجتمـــاعى (جمعية رعاية المسجونين ومحاولته ترشيد الحركة النقابية).

* * *

وفى ســـنة 1946 نشر جمـــال البنا كتابه "ديمقراطية جديدة" الذى تضمن فصلاً بعنـوان **"فهم جديد للـدين"** أنتقد فيه الحماسة التى غلبت على الإخـوان المسـلمين الـذين كـانوا وقتئذ فى الأوج وقـال **"لا تؤمنـوا بالإيمـان.. ولكن آمنـوا**

---

1 **(1) مما لا يعرفه إلا الخاصة أن الأستاذ جمال البنا أشرف على وضع شرح الجزئين الثالث والعشرين والرابع والعشرين من كتاب والده (الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى مع شرحه بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى)، ويشمل الشرح ذكر السند، والغريب والتخريج.**

بالإنسان" وعرض فى هذا الفصل لفكرة "المصلحة" كما جلاها الفقيه الحنبلى نجم الدين الطوفى. وكان السيد رشيد رضا رحمه الله قد بعثها وقتئذ من مرقدها عبر القرون ونشرها فى المنار.. والتقطها جمال البنا.

عندما كتب جمال البنا سنة 1946 عن فهم جديد للدين وقدم توجيها للإخوان المسلمين وعرض لفكرة الطوفى لم يكن الذين يبلغون الخمسين من عمرهم اليوم **ويتقلدون مناصب الأستاذية والعمادة الخ.. قد ولدوا بعد وعندما أصدر سنة 52 كتابه "مسئولية الانحلال بين الشعوب والقادة.. كما يوضحها القرآن الكريم" كان هؤلاء السادة أطفالاً يلبسون البنطلون القصير ويلعبون فى الحارة!**

* * *

وفى العشرين عاماً الأخيرة كثف جمال البنا دراساته وكتاباته الإسلامية فأصدر قرابة عشرة كتب لعل أبرزها "الأصلان العظيمان: الكتاب والسُنة" و "الإيمان بالله لدى السلف والمحدثين" و"كلاً ثم كلاً.. كلا لفقهاء التقليد وكلاً لأدعياء التنوير" و"الإسلام والعقلانية" وغيرها مما يضيق عن سرد أسمائها هذا التصدير، **وكلل هذا العقد النظيم بكتابه "نحو فقه جديد" الذى صدر فى ثلاثة أجزاء** من عام 1995 – حتى عام 1999م..

بعد هذا يقولون "إنه غير مختص".

وما يضيره من هذا..

وقد قالوا من قبل عن أبيه، الذى صنف أكبر موسوعة فى الحديث (مسند الإمام أحمد بن حنبل) وهو ما عجز عنه الأوائل لمدة ألف عام، وصنفه وأضاف إليه شرحاً وتخريجاً

وأحكـام كل بـاب فى مثل الأصـل. ثـم قـام وهو الرجل الفقـير الذى يعيش من عمل يده، فطبعه ونشره على حسابه.

قالوا عنه "ساعاتى"..

وماذا يضيره وقد قـالوا عن شـقيقه العظيم الـذى أسس الهيئة الإسلامية "الأم" وترك بصمته على الدعوة الإسـلامية فى العصر الحـديث، وقـدم الإسـلام كمنهج حيـاه، ثم استشـهد فى الأربعين.

قالوا عنه "معلم خط !!".

ومن قبل هؤلاء قال أسلافهم..

﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾..

﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال﴾..

فلندعهم فى ضلالهم يعمهون...

* * *

أثار كتـاب "نحو فقه جديـد" دويـاً فى المؤسسة الدينيـة، ونظم لقـــاء لمناقشـــته فى جامعة الأزهر بمدينة نصر يـــوم (23/2/1999) برآسة الدكتور صوفى أبو طـالب وأمانة الـدكتور محمد شوقى الفنجرى وحضـره الـدكتور أحمد كمـال أبو المجد وعـــدد كبـــير من عمـــداء الكليـــات الأزهرية ودعا بعضـــهم إلى مصادرته.

ولكن تلا هذه الندوة والدوى الـذى أثارته سـكون، وهـدوء لأن الدعوة إلى مصادرته تحـولت إلى ما يشـبه مـؤامرة صـمت وتعتيم أريد بها وآد الكتاب والحيلولة دون ذكره وانتشاره..

ولما كانت الفكرة الرئيسية من الكتاب فى ذهن جمال البنا هى إشاعة فكرة الفقه الجديد بين الشباب والعاملين فى الهيئات العامة باعتبار الفقه أمراً من أمور الحياة كما هو أمر من أمور الدين، وأن من الضرورى أن يلموا بأحكامه التى تقرر لهم المصير – بل وأن يسهموا – بقدر استطاعتهم – فى إثراء

هذا الفقه بحصيلة تجاربهم وخبراتهم أو آمالهم وتطلعاتهم نقول لما كان هذا هو المراد من تأليف الكتاب. ولما كان بحجمه الكبير وثمنه المرتفع وبما تضمنه من تفاصيل قد يشق على القارئ العادى استيعابها فقد أصبح من الضرورى اختصاره فى الحجم والتركيز على النقاط الحيوية بعد استبعاد الشروح أو الدفوع الخ.. بحيث يصدر فى قرابة مائتى صفحة، وأن يعرض بثمن يستطيع القارئ النمطى أن يدفعه.

وهذا هو السبب لماذا أصدرت دار الفكر الإسلامى هذا العمل..

وهناك عوامل أخرى تدخلت، وسهلت هذا العمل أو أسرعت به سيتحدث عنها المؤلف فى مقدمته..

إن دار الفكر الإســـلامى تحمد الله تعـــالى أن مكنها من إصدار هذا العمل، كما مكنها من قبل من إصدار الأجــزاء الثلاثة له..

﴿قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾..

دار الفكر الإسلامى

القاهرة في : رجـب 1423 / سبتمبر 2001

مقدمة المؤلف

يعد الفقه الإسـلامى أعـرق وأعظم النظم القانونيـة، فهو الوحيد الـــذى ظل يطبق منذ ألف وأربعمائة عـــام، وهو الوحيد الذى تعاون على إقامته علماء وفقهاء من أقصى سيبريا الباردة حــتى أعمــاق أفريقيا الحــارة، ومن أقصى الغــرب إلى أقصى الشرق. كلهم يعملون بهدف التقرب إلى الله بتدعيم هـذا الفقه الذى يستمد جذوره من القرآن الكريم والرسول العظيم.

ولا تقف أهمية ومنزلة الفقه الإسلامى عند هذا، إنه أشمل نظام قانونى فى العالم فهو يضم بالإضافة إلى العقيدة الإيمانية – عالم العلاقات والأوضاع، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة الحاكم والمحكوم الغنى والفقير صاحب العمل والعامل. وقد يكون أشمل من هذا إذا أخذنا بما ذهب إليه الإمام الشافعى – واضع أصول الفقه من أن "كل عمل لأبن آدم فيه حكم، يتعين معرفته والوصول إليه" وهذا الحكم قد يبينه الله تبارك وتعالى فى قرآنه، وقد يبينه رسول الله فى سننه، وقد يستنبطه العلماء المجتهدون من القرآن والسُنة. وهو إما أن يكون الوجوب أو الحرمة أو الندب، أو الكراهية، أو الإباحة ".

إن هذه المنزلة الرفيعة وما خلفته من تراث رائع لا تعنى أن نـوثن هـذا الفقه أو نجمد عليـه، بل إنها تملى علينا أن نجـدد فيه بما يكفل له التعـــــايش مع العصر والقـــــدرة على مجابهة تحدياته، وبعضها جديد لم يخطر ببال الأسلاف. فضلاً عن المبدأ المسلم به فما دام الفقه الإسـلامى فقه حيـاة، فلابد أن يتجـدد ويسير مع الحياة..

وقد شغلنى هذا الموضوع منذ أن ضمنت كتابى "ديمقراطية جديدة" 1946 فصلاً بعنوان "فهم جديد للدين" تناول فيما تناوله فكرة المصلحة كما جلاها نجم الدين الطوفى،

وظل تجديد الفقه طوال هذه المدة هما مقيما حتى صحت النية على القيام بهذه المهمة بعد أن تقاعس الجميع عن القيام بها حتى أصبح فرض عين وخلال المدة من 1995 حتى 1999 أصدرت الأجزاء الثلاثة التى حملت أسم **نحو فقه جديد** وضمت قرابة 700 صفحة كتبت بطريقة ومنهجية وأسلوب يختلف كل الاختلاف عن المعالجات الأكاديمية أو الفقهية المألوفة واستهدفت به المثقف المسلم النمطى، وليس الفقهاء.

ولكنى وجدت نفسى فى مأزق. فالكتابة عن "فقه جديد" لا يمكن أن تؤدى فى حجم أقل مما صدرت فيه الأجزاء الثلاثة ولكن هذا يحول دون أن يصل إلى القارئ المطلوب أى المثقف المسلم النمطى – الذى لا يجد الوقت، أو المال، أو لا يتيسر له المستوى الفكرى لمطالعة الأجزاء الثلاثة، وبهذا لا يبلغ الهدى محله ولا يدرك الكتاب رجله..

حلاً لهذه المشكلة رأيت أن أكتب ملخصاً للأجــزاء الثلاثة يعــرض لب الفكــرة وإن خلاً من التفاصــيل فى قرابة مــائتى صفحة بحيث يتيسر لعامة المثقفين الإسلاميين شراءه والإلمـام به والإفادة منه.

وكانت نيتى أن أنشره فيما تنشره لى دار الفكر الإسلامى، ولكن أخى الكريم المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى أقترح أن أتقدم بهذا الكتاب إلى المسابقة فى موضوع **"تجديد الفقه الإسلامى"** وقبلت ذلك رغم أن مبدئى هو عدم الدخول فى مسابقات أو تقبل جوائز، وإنما لأن ذلك سيتيح للكتاب نشراً، أو أنه سيعين على جعل ثمنه مدعما..

وقد كـان، وأسـتحق الـدكتور الفنجـرى الشـكر الجزيـل. لمساهمته تلك التى أمكن بها تيسير الكتاب بثمن مدعم..

جمال البنا

فبرايـر 2001م

ذو القعدة 1422

ملخص الجزء الأول من كتاب

نحو فقه جديد

—

يضم الباب الأول مقدمة وبابين رئيسين :

وأشـارت المقدمة إلى الفكـرة من هـذا الكتـاب وأهمية إعـادة النظر فى أصـول الفقه الـتى وضـعت منذ أكـثر من ألف عام..

ويضم الجزء الأول بابين كل منهما من عدة فصول...

الباب الأول :

يحمل الباب الأول عنوان **"منطلقات ومفـاهيم"** وقد عالج أربعة منها هى (أ) البراءة الأصلية ودائرة الحلال والحـرام. (ب) التميـيز بين الشـريعة والعقيـدة والفقـه. (ج) النشـأة التاريخية لظهور وتضـخم فقه العبـادات. وأخـيراً الاجتهـاد. هـذا المعلوم المجهول.

الفصل الأول البراءة الأصلية ودائرة الحلال والحرام :

فى الفصل الأول قلنا "البراءة الأصـلية" من أجمل وأثمن التعبـيرات فى الفكر الإسـلامى، وأهميتها لا تقتصر على جـانب **"الحلال والحـرام"** إذ إنها تعـبر عن فهم الإسـلام للإنسـان وللطبيعة البشرية، وطبقاً لها، **فالإنسان أصـلاً بـرئ، ولكن يمكن أن ينزلق إلى الخطأ إذاً تهيأت دواعى ذلك.**

ودلل الفصل على ذلك بقصة آدم الذى عاش فى البراءة الأصلية حتى خدعه الشيطان فغـوى ولكنه أدرك خطـأه فتـاب، وتاب الله عليه. كما يستشهد بما ذكره الرسـول عن "الفطـرة"

وأن الإسـلام هو دين الفطـرة، وأن كل واحد يولد على الفطـرة ثم يتولى أبواه تحويله إلى دينهما.

ونتيجة لعمق مبدأ "البراءة الأصلية" فى الإسلام، فقد انتفت من الإسلام فكرة "التابو" التى تدور حولها أديان عديدة، أو فكرة النجاسة التى ترتبط بأفكار دينية. "فالمؤمن لا ينجس أبدا"، والأمانة مغروسة فى جذور الإنسان، والأعضاء التناسلية بضعه من جسم الإنسان، والاتصال الجنسى بين الزوجين المتحابين قربى إلى الله يثاب الزوجان عليه لأنهما وضعا غريزتهما فى حلال، ولو وضعاها فى حرام لعوقبا عليها. فالاتصال الجنسى فى حد ذاته عمل طبيعى، والثواب أو العقاب عليه إنما يكون لإحسان أو لإساءة ممارسة هذا العمل.

ويتفق مع الـبراءة الأصـلية عـدم وجـود "كنيسـة" فى الإسـلام، أو مؤسسة تكـون هى الواسـطة بين الإنسـان واللـه، وتحتكر وحدها التفسير والتأويـل، والتحـريم والتحليل ! وتفتـات على البراءة الأصلية.

وهـــذا التكيف لطبيعة الإنســـان يعطيه حرية المبـــادأة ويغـــرس الثقة فى نفســـه، ولا يجعل عليه رقابة أو وصـــاية كهنوتيـة، وهـذه كلها عوامل تنهض بـالفرد، وتنهض بـالمجتمع، وتستتبع الحرية، وتفترض عدم القيود.

وتسـتتبع الـبراءة الأصـلية أن يكـون الأصل فى الأشـياء الإباحة، وأن يكون الاسـتثناء من هـذا بـدليل ثـابت لا يـرقى إليه الشـك. يعـزز هـذا أن القـرآن حمل حمله شـعواء على الـذين يحرمون ويحللون ويضيقون ويحجرون على الناس.

وينبـــنى على هـــذا نتيجة هامة للغاية هى أن التحـريم المـنزل به القـرآن صـريحاً دون تأويل أو ما قررته سُنة مؤكدة لا شائبة لضعف فيها. أما ما ينتهى إليه الأئمة والفقهاء والمجتهدون من أحكـام وتحـريم قياساً على القرآن الكـريم والسُـنة، فإنه يأخذ شـكلاً آخر ومنزلة أدنى من التحريم المنزل، لأنه وإن بنى على

القــرآن أو السُــنة، فــإن التوصل إلى ذلك مما لا يمكن القطع بصوابه وسلامته، ويغلب أن يتطرق إليه الخطأ أو القصور، ومن هنا يمكن أن نطلق عليها الفتاوى أو أحكام القضاء إذا أصــدرتها محكمة شرعية.

وهذا الاختلاف يستتبع أن **من الممكن الأخذ بالفتاوى أو الأحكام الفقهية أو عدم الأخذ بها، أو الأخذ بها** فى بلد دون بلد آخر، وفى عهد دون عهد ثان. ويمكن أن يطبق فترة ثم ينسخ ويفقد حجيته شأنه فى هذا شأن القوانين الأخرى.

بل يمكن أن يقال ما هو أكثر من ذلك.. إن معادلة التحريم الفقهى على قدم المساواة مع التحريم المنزل يكون نوعاً من الشرك الذى أشار إليه القرآن الكريم ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾.

والحقيقة أن الفقهاء التقليديين وإن اعترفوا بمبدأ البراءة الأصلية إلا أنهم لم يقدروه حق قدره ولم يفطنوا إلى الدلالات البعيدة له، ولم يسيروا معه إلى النهاية، وهم لا يشيرون إليه فى أصول الفقه الرئيسية الأربعة المقررة: القرآن والحديث والإجماع والقياس.. ولكن عند ذكر الأصول التكميلية، وعادة ما يذكرونها فى آخرها، فيذكرون الاستحسان، والاستصحاب والمصالح المرسلة، وشرع ما قبلنا، وأخيراً البراءة الأصلية فى حين أن فكرة البراءة الأصلية أكثر شمولاً من نظرية "الحقوق الطبيعية" ومن الأصل القانونى "لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص". وكان يمكن للبراءة الأصلية أن تقوم بدور كبير فى الفقه الإسلامى لو أحلها الفقهاء محلها وهم يضعون أطر الحلال والحرام. ولكن مسلكهم كاد يعكس القضية، وأصبح على المسلم أن يتريث أولاً قبل أن يفعل أى شئ ليعلم هل هو حرام أو حلال. فماذا لم يكن لديه المراجع (وهو ما يغلب بالطبع) فإن عليه أن يستفتى. وظهر فى الصحف اليومية والأسبوعية أبواب خاصة للفتاوى، كما تخصص الصحف

الإسلامية صفحات متعددة للفتاوى، وفى هذه الفتاوى – سؤالاً وإجابة – الكثير من المضحكات المبكيات.

وإنما وقف الفقهاء هذا الموقف لعاملين :

الأول: أن مبدأ البراءة الأصلية يقلص من دور المشَرع والفقيه، ويكاد يكون النقيض لتصور المقنن الذى يحمله الزهو بالحرفة، وضيق التخصص، وعدم الإلمام بالجوانب الأخرى من الموضوع لأن يتوغل فى تصوراته، ويتمسك بنصوصه، فى حين أن كبار المفكرين والفلاسفة – وقبل هؤلاء الأنبياء – يعلمون أن الشرائع أنزلت للناس وليس العكس، وأن المجتمع كائن معقد متعدد الأبعاد وأن رجل القانون الذى تصور أن عليه أن يضع معالجة قانونية لكل كبيرة وصغيرة يوجد بذلك من المشكلات أكثر مما يضع من الحلول. لم يلم معظم الفقهاء المسلمين بهذه الجوانب، وتصوروا أن ارتباط القضية بالله تجعلها حاكمة على كل صغيرة وكبيرة، مما قد تمثله كلمة الشافعى "كل فعل لأبن آدم فيه حكم، يتعين معرفته والوصول إليه"، وهذا الحكم قد يبينه الله تبارك وتعالى فى قرأنه، وقد يبينه رسول الله ﷺ فى سننه، وقد يستنبطه العلماء المجتهدون من القرآن والسُنة، وهو إما أن يكون الوجوب أو الحرمة، أو الندب، أو الكراهية، أو الإباحة ".

قــارن هــذه الكلمة بكلمة الرســول العظيم: "ذرونى ما تــركتكم، فإنما هلك من كــان قبلكم بكــثرة ســؤالهم واختلافهم على أنبيــائهم، فــإذا نهيتكم عن شئ فــاجتنبوه، وإذا أمــرتكم بشىء فخذوا منه ما استطعتم".

ويلخص الفصل ما يترتب على ما قدمه من مقدمات..

1) إن اعتبار "البراءة الأصلية" أصلاً من أصول الفقه الإسلامى يمكن أن يغير الصورة السائدة تماماً، بحيث يعد

كل شئ حلالاً ومباحاً ما لم يصدر بشأنه تحريم، خاصة إذا رزق طمأنينة القلب.

2) إن التحريم والتحليل أمرهما إلى الله تعالى بالنص الصريح فى القرآن الذى لا يحتاج إلى تأويل أو السُنة النبوية التى لا يمكن أن تعلق بها شائبة ضعف. أما تحريم الفقهاء والمجتهدين، فإنه يأتى فى مرحلة أدنى من مرحلة التحريم والتحليل المنزلين، ويمكن أن يعد تقنينا إسلاميا يخضع لما يخضع له القانون من تعديل أو نسخ أو إلغاء.

3) إن محاولات الفقهاء إدخال تصنيفات ما بين الحلال والحرام محل "العفو" الذى أكدته السُنة النبوية هو مما يدخل فى باب الصناعة الفقهية ورغبة المشرع الإحاطة بكل تصرفات الأفراد ووضعها تحت الأذن، وهو ما رفضه الرسول، وآثر أن يدع الناس فى (ما أحله الله فى كتابه وما حرم الله فى كتابه) إلى ضمائرهم، وإلى خالقهم، فضلاً عن مرحلة العفو، التى تنم – حتى بلفظها – عن العفو وتتضمن بالتبعية الحرية، وحاول الفقهاء محاصرتها بمختلف التأويلات.

4) إن "سد الذريعة" يفترق – إن لم يضاد – الوسيلة التى وضعها القرآن، وهى "المقاصة" التى تفضل سد الذريعة من كل ناحية.

الفصل الثانى التمييز بين العقيدة والشريعة والفقه :

ويتنـاول الفصل الثـانى قضـية قد لا يبـدو للوهلة الأولى أهميتها أو يظن أن الخلاف فيها أكـاديمى، ولكن الحقيقة غـير ذلـك. تلك هى "التميـيز بين العقيـدة والشـريعة والفقـه" وقد أستعرض المؤلف أقوال الفقهاء الذين سمحوا لبعض الإشـارات أن تضـللهم عن التميـيز السـليم فلم يمـيزوا بين العقيـدة والشريعة، أو قالوا إن الشريعة تضم كل شئ.. وقد توصل شيخ من أفضل شـيوخ الأزهر وهو الشـيخ شـلتوت رحمه الله إلى

التمييز بين العقيدة والشريعة، بل وأصدر كتابا يحمل هذا الاسم "الإســلام عقيـــدة وشـــريعة" وقـــرر أن العقيـــدة هى الأصل والشريعة فرع.

ولكن الشيخ شلتوت رحمه الله، وإن ميز ما بين العقيـدة والشريعة، وجعل العقيدة هى الأصل والشريعة هى الفرع، فإنه لم يمض إلى النهاية بما يعنيه التميـيز، وهـذا ما قـام به الفصل عنــدما قــال "وطبيعة العقيــدة، والملكة الــتى تقــوم عليهــا، والوسائل المحققة لها تختلف عن طبيعة الشريعة والملكة التى تقوم عليها والوسائل المحققة لها، فالعقيدة إيمـان بالله تعـالى وكتبه ورســله واليـوم الآخــر.. والملكة الـتى تقـوم عليهـا. هى الإيمان القلبى، والوسائل المؤدية إليها هى الصلوات والعبـادات والقربات والدعاء والابتهال إلى الله، وقـراءة القـرآن والتمـاس العظة والعـبرة والـدليل على القــدرة الإلهية من مشــاهد هــذا الكون وما يحفل به من آيات.

أما الشريعة فهى الأعمال والعلاقات التى تربط ما بين الأفراد بعضهم ببعض، وما بين "الدولة" والمجتمع والملكة التى تقوم عليها هى النظر العقلى وملاحظة المصالح والوسيلة المؤدية إليها هى العدل الذى يتبلور فى قرارات وأحكام ملزمة بقوة القانون.

وهذا التقسيم يقتضى أن يدخل كل ما يختص بوجود الله تعالى وذاته وعالم السمعيات، وما يتبعه من عبادة وشعائر، فى إطار العقيدة التى تمثل الإيمان وتقوم على القلب وتصل الفرد بالله تعالى، وهذا كله يمكن أن يدخل فى الفقه بالمعنى العام الواسع للكلمة، ولكنه لا يدخل فى "الشريعة"، وإن كان يدخل كل ما يمثل العلاقات – سواء كانت العلاقات ما بين الأفراد بعضهم بعضاً، أو بينهم وبين الدولة – أو ما يخص الاقتصاد والسياسة فى إطار الشريعة التى تقوم على العقل والمصلحة، أو بمعنى أدق "العدل" وتصل الفرد ببقية الأفراد الآخرى

والهيئات الآخرين.. وما يتطلبه تقرير ذلك من إصدار القوانين وتطبيقها بحكم ما لدى الدولة من أجهزة.

فإذا رفض بعض المسلمين دفع الزكاة، كان للدولة أن تستخلصها منهم لأنها ليست من حقهم، بل هى حق الآخرين، وعندما تستحوذ عليها الدولة فإن هذا يمكنها من تحقيق ما سنت الزكاة له.

ولكن لا يمكن مد هذا القول على أية شعيرة أخرى، ولا على ما يمت إلى ذات الله تعالى وعالم السمعيات، فإذا لم يكن ثمة اقتناع وإيمان ورضا وسكينة و "هداية" فما من قوة يمكن أن تفرضها على فرد ما، وإذا أمكن فلا قيمة لإيمان يكون نتيجة قهر وجبر.

وأنتقد المؤلف التعريف المشهور لمقاصد الشريعة وأنها تضم أولا حفظ الدين. فإن حفظ الدين لا يدخل فى الشريعة ولكن فى العقيدة. لأن الشريعة لا تستطيع بالقوانين أو أجهزة الدولة أن تحفظ الدين، وإنما يحفظه إيمان الناس.

وبناء على الالتزام بالتقسيم ما بين العقيدة والشريعة، فإن المؤلف أنتقد بمرارة إخراج الفقهاء كل ما يخص العقيدة من إطار الفقه ووضعها فى علم الكلام. لأن الإيمان بالله هو واسطة العقد فى العقيدة ومنه تنبعث التقوى والخير وبذور الضمير، وإقصاء هذا كله إلى علم الكلام الذى لا يعنى به إلا فئة قليلة جرد عقيدة معظم الناس من عمق ومضمون "الإيمان بالله"..

كما انتقد وضع الفقهـــاء الإمامة فى كتب الكلام أيضـــاً، وكان يجب أن يكون فى أولى أولويات الشريعة وأقـترح الفصل :

أولاً: ضم علم التوحيد والكلام إلى الفقه، وإقامته على المنهج القرآنى وليس على منهج المنطق اليونانى، ووضعه تحت أسم "فقه العقيدة"ـ جنباً إلى جنب مع العبادات والشعائر التى يطلق عليها فقه العبادات ومن هذين (فقه العقيدة/ فقه العبادات) يكون فقه العقيدة.

ثانياً: استبعاد موضوع الإمامة من كتب الكلام والتوحيد وضمه إلى الشريعة.

ثالثاً: استبعاد كل ما يتعلق بالعبادات من الشريعة، وضمه إلى العقيدة – كما ذكرنا فى أولاً – بحيث تقتصر الشريعة على المجالات الدنيوية وعلاقاتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والقانونية ويطلق عليها فقه الشريعة.

رابعاً: اعتبار العمل مكونا من مكونات الإسلام لا يقل عن العقيدة والشريعة، لأنه إلى حد ما تطبيق لها، ومصداق للإيمان ومعيار للثواب والعقاب، فضلاً عن أنه يضم كل العمل الطيب وإن لم تكن له صلة دينية بالضرورة، ويطلق عليه "فقه العمل".

وهذه المجالات الثلاثة متكاملة – وإن كل واحد منها متميز عن الآخر – وتكون فى مجموعها فقه الإسلام.

الفصل الثالث النشأة التاريخية لظهور وتضخم فقه العبادات :

عنى هذا الفصل بالبحث عن أسباب تضخم فقه العبادات فتحدث فى مقدمه مسهبة عن ظهور الأديان وأن العبـادات هى أبرز ما يميز الأديان عن المعتقدات والنظم الأخرى وتحدث عن العبادة أيام الرسول وما اتسمت به من بساطة ونقـاء وبعد عن التعقيد الأمر الذى تغير بعد أن قبض الرسول وحـول معاوية بن أبى سفيان الخلافة إلى ملك عضوض إذ أوجد نوعاً من الحـرب ما بين الفقهـاء وهم حمـاة المبـادئ والأصـول الإسـلامية الـتى أرساها الرسول ومارسها الخلفاء الراشدون وبين الحكام الذين حافوا على هذه الأصـول وحكمـوا بالغلبـة، وبالسـيف ومارسـوا موبقـات مثل قتل الحسـين بن على فى مذبحة كـربلاء وضـرب الكعبة بالمنجنيق وغزو المدينة بصورة همجية أبعد ما تكون عن الإسـلام. إن هـذه الأفعـال ما كـان يمكن أن تمر بسـهولة أمـام أعين الفقهاء فشاركوا فى القومات ضـدها، ولكنهم هزمـوا فقد كان لدى الدولة الجيش المسـلح والمـوارد المالية بينما لم يكن لدى الثائرين إلا أعداد محدودة من المتطوعين، فهزمت الكـثرة الشجاعة، ولم يعد عملياً أمام الفقهـاء من مجـال يصـولون فيه

ويجولــون إلا الشــعائر العبادية الــتى لا يــرفض الحكــام أن يعالجوهـا، بل هم يرحبـون بـذلك لأنها تنقل الفقهـاء والجمهـور أيضــاً، من مجــال المعارضة السياســية إلى مجــال الصــلوات والنوافل والدعاء والصيام الخ.. وكـان العـزاء الحقيقى للفقهـاء أن العبـادات هى خصيصة الأديـان وأنها تطهر النفـوس وتصـلح الأفراد.

وهكـذا تضـخم الفقه العبـادى واسـتأثرت الصـلاة بـالجزء الأعظم، وضرب المؤلف المثل بأن معالجة الصلاة ضـمت سـتة أجزاء من أجزاء مسند الإمام أحمد بن حنبل الأربعة والعشرين، وأن هذا الإسهاب ليس مقصوراً على المسند.

وقال المؤلف "إن أسوأ ما ترتب على التضخم التاريخى لفقه العبادات هو أنه شوه شخصية المسلم تشويها وصل من العمق والتغلغل أن أصبح قرينة لها ودلالة عليها.. فالمسلم هو الذى يؤدى الشعائر ويقوم بالنوافل والمندوبات سواء كان جاهلاً أو عالماً.. صادقاً أو كاذباً.. أميناً أو خائنا.. مجداً أو كسولاً. ما دام أرسل لحيته وأعفى شاربه وجعل همه المساجد يقصدها لكل صلاة. يطيل ويتأنى ويصلى النوافل ثم يخرج مسبحاً محوقلاً فى حين أن هذا المسلك يناقض ما أراده الرسول للمسلم ليس فحسب كما يبين ذلك حديث المفلس بل كما دلت على ذلك أحاديث عديدة تنفى صفة الإيمان عن المنافق أو الكاذب أو الخائن.

الفصل الرابع الاجتهاد هذا المعلوم المجهول :

لاحظ الفصل أن باب الاجتهاد لم يُغلق بأمر سلطانى ولكنه أنغلق لحالة البلبلة والاختلاف ما بين الفقهاء بعضهم بعضاً فى المسألة الواحدة فى البلد الواحد، وكان المسلك الأمثل تنهيج الاجتهاد، ولكن التنهيج لم يكن مألوفا وقتئذ.. وكان الحل إغلاق باب الاجتهاد كله والاقتصار على العدد المحدود من المذاهب التى أثبتت كفايتها.

وذكر المؤلف أن الصـورة القديمة للاجتهـاد الـتى كـان يمكن للمجتهد أن يفـتى فى كل المسـائل لم يعد لها مكـان بعد توسع المعارف توسعاً لا يمكن لأى واحد أن يلم بهـا، والطريقة الوحيـدة لتحقيق قـدر من الاجتهـاد هى المجـامع الـتى تضم الفقهاء من مختلف الدول الإسلامية وبجـانبهم الخـبراء الفـنيون الذين يعرضـون الوجه الفـنى والعملى للموضـوع حـتى لا يجهله الفقهاء فيصدرون أحكاماً سقيمة.

وقـارن الكتـاب بين كلمة معـاذ بن جبل "أجتهد رأيى ولا ألو" والقيود التى كيل بها الفقهاء الاجتهـاد بحيث أصبح كاشفاً عن الحكم وليس منشئاً للحكم.

وانتقد تعبير لا اجتهاد مع النص، وأوضح أن أكبر مجال للاجتهاد – بالمعنى العام – هو النص – حتى لو كان يبدو جليا وضرب المثل بالآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ فقد وجد من يقول عن أهل البيت أنهم الرسول وعلى بن أبى طالب وفاطمة والحسن والحسين "ووجد من يضيف إلى هؤلاء زوجات الرسول، ووجد من يقول أهل مكة وأن البيت المقصود هو البيت الحرام" وهناك آيات عديدة بهذا المعنى.

كما أبـدى الفصل العجب لأنه لا يـرى إشـارات كافية للاجتهاد بالشورى مع أن هناك نصوصـاً عنها وأنها كـانت وسـيلة أبى بكر الـذى "عنـدما لم يكن يجد حلاً فى كتـاب الله وسُـنة رسوله فإنه "كان يجمع خيار الصحابة ويستشـيرهم ويقضى بما ينتهون إليه وكذلك كان يفعل عمر".

وأشـار الفصل إلى أنه رغم كـثرة الحـديث عن فتح بـاب الاجتهـاد فـإن كل محـاولات التجديد فى الفقه الإسـلامى لم تسـتهدف الاجتهـاد حقـاً. ولكن جمع وتصـنيف الأحكـام فى المذاهب المختلفة ومن ثم ينفسح المجال لتفضيل بعضـها على بعض أو الأخذ بهـذا الحكم دون ذلك خاصة وأن سـعة التبـاين والتفاوت ما بين سُنة وشيعة ظاهرية وإباضية تسمح بذلك.

وعرض الفصل نتائج ما انتهت إليه فى:

(1) إن باب الاجتهاد لم يغلق قديما، ولكنه "أنغلق" لما أشاعه الاجتهاد من بلبلة، ولانعدام "التنهيج" والتنظيم مما أدى إلى غلبة المذاهب المتبعة واندثار الاجتهاد تدريجياً، والدعوة لفتح باب الاجتهاد يجب أن تقترن بتنظيم منهجى يختلف تماماً عن الصورة التقليدية القديمة له.

(2) أراد الفقهاء للاجتهاد أن يكون نوعاً من القياس وأن يربطوه بـ "العلة" بحيث يكون مُظهراً للحكم لا منشئاً له، ومن ثم فإنه لا يكون اجتهاداً كما يوحى به كلمة معاذ "أجتهد رأيى ولا ألو".

(3) طبقاً لهذا المنهج، قال الفقهاء: "لا اجتهاد مع النص"، ولكن التقصى الفعلى لطرق التوصل إلى الأحكام أو تفسير القرآن يوضح أن معركة الاجتهاد الحقيقية إنما كانت مع النص وحوله، فكائناً ما كانت درجة وضوح النص، فلابد فى النهاية من إعمال الفكر.

وما شـــاب هـــذا الاجتهـــاد هو عوامل طارئة مثل تـــأثير الإسرائيليات التى غلبت على التفسير، والعجز عن رتق الخــرق فى الحديث بالنسبة لتأخر تدوينه، والخضوع لبعض قواعد النحو واللغة والمنطق اليونانى، وأخيراً روح العصر التى لابد أن يكون لها تأثير ظاهر أو كامن على الفقهــاء، وهى كلها عوامل عارضة يفـــترض ألا تبقى وألا تواصل تأثيرها على الاجتهـــاد فى هـــذا العصر.

(4) مع انتفاء العوامل السابقة التى أوقفت الاجتهاد قديماً، وانفتاح الأسباب والوسائل فى العصر الحديث. فإن همة الفقهاء المعاصرين لم تتسامى إلى اجتهاد، وقصارى ما حاولوه هو تنهيج التراث الفقهى واختيار الأفضل. كأنما انغلق إلى الأبد الاجتهاد والإبداع. وتجمد الفقه الإسلامى

فى العصر الذى تتدفق فيه المعلومات والمعارف ويجتاز العالم ثورة معرفية..

(5) إن الصورة المثلى لتنهيج اليوم هى تكوين مجامع – تجمع الفقهاء جنباً إلى جنب الخبراء والفنيين لما أشرنا إليه من مبررات ولأن هذا يحقق الاجتهاد بالشورى.

وختمت هذه الفقرة بملاحظة فى منتهى الأهمية تلك هى "ومع هذا فإنه حـتى هـذه الصـورة لن تـؤتى أكلها إلا بعد إعـادة النظر فى أصول الفقه بحيث لا يكـون الاجتهـاد مظهـراً للحكم، ولكن منشئا له".

الباب الثانى
فهم الخطاب القرآنى

والباب الثانى من الكتاب هو عن فهم الخطاب القرآنى وهو يتضمن ثلاثة فصول من الخامس إلى السابع فعالج الفصل الخامس "فهم الخطاب القرآنى فى أيام الرسول" والسادس وهو عن "فهم الخطاب القرآنى بعد المرحلة النبوية حتى الفترة المعاصرة وأخيراً" – الفصل السابع – "فهم الخطاب القرآنى كما يجب أن يكون"..

الفصل الخامس فهم الخطاب القرآنى أيام الرسول :

أبرز الفصل كيف أن تلاوة الرسول للقرآن كانت وحدها كافية لزلزلة إيمان المشركين أو حملهم على الإسلام وأورد الشواهد العديدة كقول جبير بن مطعم "سمعت رسول الله يقرأ فى المغرب بالطور فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه. فلما سمعته قرأ أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون خلت أن فؤادى قد انصدع".

والنتيجة التى يصل إليها الفصل هى أن القرآن يملك قوة عجيبة – سماها العرب سحراً – للهداية، ولخلق الإنسان خلقا إيمانيا جديداً.

وهذا الفصل هو أكثر فصول الكتاب اختصاراً لأن الهدف منه كان إثبات أن تلاوة القرآن وحدها كانت كافية لتحويل المشركين إلى مؤمنين.

الفصل السادس فهم الخطاب القرآنى بعد المرحلة النبوية حتى الفترة المعاصرة :

تعرض الفصل لظهور التفاسير نتيجة للتطور الكاسح للدولة الإسلامية الذى حدث خلال عشرين عاماً ودفع بالدعوة الإسلامية إلى الهند والصين شرقاً وأسبانيا وأفريقيا غربا حتى وقف عقبة بن نافع بجواده على شاطئ الأطلسى معلنا: "لو يعلم أن وراء مائه أرضاً لخاضها" وطوى الإسلام الإمبراطورية

الفارسـية فى العـراق ولاحقها فى فـارس وإيـران حـتى حـدود الهند وقضى على إمبراطورية الرومان فى سوريا ومصر.

الظـاهرة الرئيسـية الـتى حكمت هـذا المجتمع وهيمنت عليه أن هـذه الجمـوع لم تتعـرف على الإسـلام تعرفـاً عميقـاً، ولعل بعضــها لم يسـلم عن إيمــان، بل لعل بعضــها أراد الكيد للإسلام. وأنها لا تتقن العربية وتعجز عن فهم جوانب عديدة من جـوانب الصـياغة القرآنيـة. وأنهم حملـوا بين جـوانحهم رواسب حضــارات عريقة قديمة قضى الإســلام على وجودها السياسى ولكن ظلت فى شـعوبها الخصــائص العميقة لهـذه الحضــارات والمنـــاخ التـــاريخى والسياسى لها مما يمكن أن يعد "ذاكـــرة جمعيــة" للشـعوب لها شـفرتها الخاصة كما أن للفــرد شــفرة وراثته الخاصة.

ولم يكن لدى هؤلاء حفـاظ وسـمت الصـحابة أو إيمـانهم كما لم يكن المجتمع هو المجتمع المحدود الذى كانــه، لقد كـان الاســـتطلاع والرغبة فى المعرفة وتطلب الإجابة هو الشـــغل الشاغل.

لم يكن فى القرآن التفاصيل التى تسـعفهم ولم يكن من الممكن وضع فقه أو قانون على أسـاس اسـتلهام روح الإسـلام وما أرسـاه القـرآن من مبـادئ وقيم. كـان هـذا يتطلب تنهيجـاً وتنظيماً لم يكن العرب يعرفونه.

الحاجة تفتق الحيلة وقد تفتحت أمامهم أبواب عديدة يمكن أن تشبع فضولهم وتحقق طلعتهم.

فهناك التوراة والتراث الإسرائيلى العريق والضخم الذى تراكم بمرور ألفى سنة تقريباً وشجّع بعض الأسلاف الإقبال عليه أن القرآن منح بنى إسرائيل مساحة كبيرة، وتحدث عنهم بدءاً من إبراهيم حتى موسى ويوسف مرات عديدة وأوجب على المسلمين الإيمان برسلهم إبراهيم وأسحق والأسباط مع بقية الأنبياء "لا نفرق بين أحد منهم" وأنه يرى أن الديانات ذات أصل واحد وأن إبراهيم – رأس الديانات الثلاث – كان حنيفاً

مسلماً ولهذا يعترف بها. وقد كان الوجود اليهودى فى المدينة عندما قدمها الرسول ﷺ طاغياً وقد أسلم القليل منهم كما دخل فى الإسلام بعضهم مع بقايا سبى بنى قريظة وخيبر وعندما أجلا عمر الباقين رحلوا إلى الشام التى كانت أحد مراكز التكتلات الإسلامية أيام الفتوح.

ووقف آخرون أمام "أسباب النزول" وكان فى القرآن آيات معدودة يمكن التعرف صراحة على أسبابها أو شخوص من أنزلت فيهم، فعندما يقول القرآن الكريم "ثانى أثنين" إذ هما فى الغار" فمن الواضح أنه يشير إلى أبى بكر لأن الواقعة التاريخية هى أنه لم يهاجر مع الرسول ﷺ إلا أبو بكر. وعندما يقول القرآن ﴿قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها﴾ فمن الواضح أنها نزلت فى سيدة بعينها يمكن إثباتها لأنها أوجدت حكماً شرعياً، وعندما يقول القرآن ﴿تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد﴾ فإن القرآن قد سمى من أنزلت فيه وأشار إلى زوجته وكذلك عندما يقول ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى....﴾ فهذه تمثل واقعة معينة لها صاحبها الكفيف. ولكن الحالات التى من هذا النوع محدودة فى القرآن والأغلب والأعم أن لا يحدد القرآن أسماء أو تواريخ أو أسباباً وأن يذكر الواقعة للاتعاظ واستلهام العبرة أو استخلاص النتيجة. وهو بالطبع يلجأ إلى هذا الأسلوب لأنه لا يريد أن يسرد "معلومة" ولكن أن يحدث تأثيراً، ولأن ذكر التاريخ أو العدد الخ.. يمكن أن يكون على حساب التأثير المطلوب للمعلومة التى لا جدوى – عمليا – من ورائها. ولكن هذا دق على المفسرين أو لم يوقف فضولهم وتطلعهم ووجدوا الحل فى الإسرائيليات أو بعض الأحاديث المنحولة.

ونكـاد نقطع بـأن معظم ما جـاء عن "أسـباب الـنزول" منحول أو موضوع أو مروى بالمعنى الـذى ينـال من مصـداقيته ولكن المفسرين تلفقوا هذه الأحاديث لأنها حلت لهم مشـكلتهم حتى وإن قالوا "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب".

وعندما توقفوا أمام اختلاف مستويات الأحكام فى بعض الحالات تصوروا أن الحل هو النسخ وارتكزوا على الآية 106 من سورة البقرة ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ وكذلك الآية 101 من سورة النحل ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ولو راجعوا ما بين دفتى المصحف لعلموا أن القرآن لا يستخدم كلمة آية بمعنى نص ولكن بمعنى معجزة أو قرينة أو دلالة وأنه إذا كان ثمة نسخ فهو ما تنفيه الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمّنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ {52 الحج}. وأن اختلاف مستويات الأحكام فى بعض الآيات مطلوب ومقصود وأنه كما قال القرآن نفسه {101 النحل} "بدلنا" أى بدائل وقد تصوروا أن القرآن الكريم قد نزل لهم ولعصرهم فأرادوا أن يقيموه على مثل حد السيف.
والقرآن الكريم نزل للناس كافة وللعصور كلها ولهذا ففيه فسحة وسعة وتفاوت وبدائل. وكلها رحمة من الله ومعرفة بتفاوت العصور والأجيال.

وعّز على اللغويين أن يبدع القرآن لغته الخاصة وصياغته المميزة وظنوا – وبعض الظن إثم – أن عليه أن يتبع قواعدهم ! فأخذوا يفتاتون عليه مع أنهم يعترفون أنه أصل اللغة وأن ما يأت به لابد وأن يكون الأمثل حتى وإن لم تستوعبه إفهامهم الضيقة المتزمتة.

أما المـذهبيون فقد حـاولوا تطويع بعض الآيـات لتتفق مع مذاهبهم سواء كانوا معتزلة أو مرجئة أو شيعة الخ...

وشــغلت عملية التفســير علمــاء الأمة من شــرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها وعلى امتداد القرون. فقد أعتبـر التفســير أشــرف الأعمــال والقربــات وأهمها للنــاس وللمجتمع حتى أصبحت التفاسير غابة كثيفة حجبت القــرآن تمامــاً وأحلت محله هــذا الغثــاء الــذى يقــوم على الإســرائيليات والأحــاديث الموضوعة والاجتهادات.

وبدأت محاولات البحث عن إعجاز القرآن، وتدور معظم هذه المحاولات حول **"الأعجاز البيانى"** لأن القرآن لديهم كتاب "أدب" فعنى بعضهم بإبراز الأعجاز اللغوى والأسلوبى ورأوا الإعجاز كل الإعجاز هو أن تضم آية مثل وقيل يا أرض ابلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودىّ وقيل بعداً للقوم الظالمين واحداً وعشرين ضربا من البديع مع أنها سبع عشرة كلمة وأن فى آية ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حى عن بينة . أربعة عشر نوعاً من البلاغة هى الإيجاز والترشيح والأرداف والتمثيل والمقارنة والتمثيل والمقارنة والاستدراك والإدباج والإيضاح والتهذيب والتعليل والتبكيت والمساواة وحسن النسق وحسن البيان !

ولا جدال أن الأمر كـذلك بالنسـبة للغـويين ولكن القـرآن لم ينزل ليحمل اللغويين على الإيمان به بحكم إعجازه اللغــوى، ولا يعنى القارئ العادى هذا التفنن فى القول ولا يــؤثر فيــه، ولا يلمس وجدانه. أو يشعرهم "نبض القرآن"

وقد اعترف كاتب إسلامى محنك هو الأستاذ محمود محمد شاكر "أن الذين بحثوا عن جانب البيان لم يصلوا إلى شئ، لا الباقلانى ولا عبد القادر الجرجانى ولا من لف لفهما من الأئمة والباحثين كل هؤلاء قاربوا ولم يمسوا حاولوا ولم يحققوا. وإنما تشاغلوا بأمور أخرى لا تتصل بالبيان".

وتحدث الفصل عن بعض أراء مصطفى صادق الرافعى. التى جاءت فى الجزء الثانى من كتاب "آداب اللغة العربية" المخصص لأعجاز القرآن. وكذلك كتابات الدكتور محمد عبد الله

دراز صاحب "النبأ العظيم" وكلام الأستاذ محمد فريد وجدى فى الجزء السابع من دائرة المعارف، وتعقيب الدكتور محمد رجب بيومى عليه.

وتحدث الفصل فى فقرة مسهبة شيئاً ما عن المفسـرين المحدثين، بـدءاً من الشـيخ محمد عبـده الـذى يعد رائد النهضة فى مجال المعرفة الإسلامية بقدر ما كـان أسـتاذه الأفغـانى هو الرائد فى مجال القضية السياسية وقال :

تتركز الأهمية الخاصة للشيخ محمد عبده فى أمرين :

الأول: أنه وإن سار على طريقة المفسرين فى تفسيرهم القرآن سورة سورة فإن طريقة تفسيره اختلفت اختلافاً كبيراً. فاستبعدت كل الإسرائيليات ولم يعد التركيز على "المأثور" و "المنقول" ولكن المعانى وما تدل عليه الكلمات والسياق. مع الإفادة فى ذلك بثقافة العصر الحديث التى ألم بها الشيخ فتفسير محمد عبده كان الخطوة الأولى على طريق المحدثين وربما كانت أفضلها فى تفسير القرآن.

الثانى: أن أثر الشيخ وتفسيره عم العالم الإسلامى بفضل زياراته للشمال الأفريقى والدول الأوربية فضلاً عن مصر ولبنان. وقد أعتبر كتاب "الإمام محمد عبده ومنهجه فى التفسير" أن مدرسة الشيخ محمد عبده فى التفسير ضمت الشيخ عبد القادر المغربى والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ جمال الدين القاسمى (صاحب محاسن التأويل) والشيخ عبد الحميد بن باديس علامة الجزائر ومؤسس جمعية العلماء والذى ظل 25 عاماً يلقى دروسه عن التفسير والشيخ الطاهر بن عاشور علامة تونس وصاحب (التحرير والتنوير) فى 12 مجلد. والشيخ محمود شلتوت وبقية التابعين كالشيخ المدنى والشيخ محمد عبد الله دراز وغيرهم".

وكان من توفيق الله أن قيض للشيخ محمد عبده وهو فى قمة النضج والعطاء مريداً مخلصاً نابغاً هو السيد محمد

رشيد رضا صاحب مجلة المنار والذى نذر حياته لنشر علم الشيخ. فبدأ تفسيره فى المنار حتى توفى الشيخ محمد عبده. واستقل الشيخ رشيد بالتفسير ثلاثين عاماً متصلة. وكان التفسير هو غّرة مواد تحرير المنار. وقد توفى الشيخ رشيد رضا وتوقف عند تفسيره فى سورة يوسف عند قوله رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث، فاطر السماوات والأرض، أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالآخرين {101 يوسف}.

فهـذه الصـحبة الجميلة المخلصة الـتى يعز مثالها وهـذه الاسـتمرارية فى العمل فى مجلة رزقت من الشـهرة والتقـدير فى العـالم الإسـلامى ما لم ترزقه مجلة أخـرى كـانت من أكـبر أسباب شهرة وبروز تفسير الشـيخ محمد عبـده والشـيخ رشـيد رضا.

ورغم كل هذا فـإن الإبـداع فى تفسـير المنـار ومدرسـته كــان فى الناحية السـلبية أكـثر مما كـان فى الناحية الإيجابية بمعنى أنه كشف الزيوف والأسـاطير الـتى حفلت بها التفاسـير التقليدية ولكنه لم يتمكن من إبــــداع منهج أو يصل إلى عمق يمثل إضـافة حقيقية وقد جـاءت المحـاولات الجديد على أيـدى كتـاب ليسـوا بالضـرورة من العلمـاء المشـهورين أو الفقهـاء البــارزين.. فحــاول فقيه مغمــور درس فى مدرسة الــدعوة والإرشاد التى أسسها الشيخ رشيد رضا وظلت قائمة لفـترة ما "تفســير القــرآن بــالقرآن" ومع أنه لا يمكن أن يعد رائــداً أو مكتشـفاً لهـذا المنهج إذ أشـار إليه كثـير من المفسـرين ولكن طريقته والمدى الذى ذهب إليه هو ما يمثل الجديد فى الأمر. إذ أنه لما كان متأثراً بأفكار العصر ومؤمناً بسلامتها فقد حـاول أن يطــوع عبــارات قرآنية لتتفق مع ما ذهب إليه حــتى لو كــان التعسف واضـحاً، فلما لم يكن يـؤمن بـالمعجزات ولا بـالرق ولا بـالزواج بـأربع ولا بـالجن كما لا يـؤمن بـرجم الـزانى وقطع يد السـارق فقد حـاول أن يفسر كل ما جـاء فى القـرآن عن هـذه وغيرها بما يتفق معه.

وبــالطبع فــإن التوفيق قد خانه فيما ذهب إليه لأنه ليس مما ينــافى علــوم العصر أو حقائقه وجــود معجــزات وخــوارق وعوالم أخــرى. أما ما يتعلق بالأحكـام فكـان يسـتطيع معالجتها من مداخل مختلفة.

وتناول الفصل ظهور "الإعجـاز العلمى فى القـرآن" على يدى الدكتور توفيق صدقى الطبيب فى مصلحة السـجون الـذى كتب سلسلة من المقالات فى مجلة المنار عام 1905 عن هـذا الموضـوع حـتى الـدكتور مصـطفى محمـود صـاحب التفسـير العصرى للقرآن.. وعرض بعض وجهات نظرهما.

وأشـــار إشـــارة ســـريعة إلى أن الأجل لم يتسع للإمـــام الشهيد حسن البنا ليقدم إضافة كاملة فى التفسير الـتى وقفت عند تفسـير الفاتحة والآيـات الأولى من سـورة البقـرة ونشـرها فى مجلة "الشهاب".

وأشار بعد ذلك إلى كتاب الدكتور محمد شحرور "الكتاب والقــرآن" وما جــاء فيه من اجتهــادات تعــرض لها الأولــون أو المعاصـــرون، ولكنه فى الـــوقت نفسه لم يستسغ اجتهـــادات أخــرى نشــأت نتيجة لاعتمــاده على الجــذور اللغوية للكلمــات وأصــلها فى قــواميس اللغــة، وهــذا مما لا يمكن أن يُحكم فى القــرآن، فــالقرآن له لغته الخاصـــة، كما لم يتفق مع الـــدكتور شحرور فى تعريفه للمــال والبنــون، وكلمة النســاء كجمع نسئ إى المتأخر والمستجد ويصـبح تفسـير الآية نسـاؤكم حـرث لكم الخ.. أن الأشياء المستجدة وهى من الأشياء المادية الـتى يحب النـــاس جمعها وكســـبها قد أباحها اللـــه.. وكلمة "حـــرث لكم" للدلالة على الذكور والإناث.

وكذلك تفسيره ﴿ولا يضربن بأرجلهّن ليعلم ما يخفين من زينتهنَّ﴾ فإن الضرب هو السير لأن ضرب فى اللسان العربى لها أصل واحد ثم يستعار ويحمل عليه وأول معنى محمول عليه هو الضرب فى الأرض بغرض العمل والتجارة والسفر كقوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينّوا﴾ {النساء 49}.

و"القلب" عند الــــدكتور شـــــحرور هو المخ ولا يثنيه أن يضعه القرآن فى الصـدور. أما الشـهر فى سـورة القـدر فليس المقصود به شهر رمضان ولكنه "إشهار" القرآن.

كما أن المقصود بقوله تعالى فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه قسم لو تعلمون عظيم هو أسرار مواقع النجوم فى الكتاب كله وهى الفواصل بين الآيات وليس مواقع النجوم فى السماء حسب المفهوم الشائع.

نقول: إن كلام الدكتور شحرور فى هذا كله مما لا يستقيم..

وعــــرجت الفقـــرة على مدرسة المستشـــرقين وما بعد الحداثة، فأشارت إلى هذه الموجة الـتى عصـفت بأصـول الفكر التقليـدى الأوربى وفككتـه، دون أن تعيـده إلى ما كـان، وأنه إذا كان لها أى دلالة فالنسبة للأوربى، أما الفكر العــربى فلا ينطبق عليه.

وعرج على محاولات محمد أركون لفهم القرآن. وأوضح كيف أنه سقط من غير أن يدرى فى هاوية تجمع بينه وبين المشركين عندما جعل مفتاح فكرته على القرآن أنه "ذو بنية أسطورية متعالية" ولم يتنبه لاستغراقه فى الفكر الأوربى إلى أنه يضع نفسه فى خندق واحد مع المشركين الذين قالوا عن القرآن "أساطير الأولين" وعندما تنبه إلى ذلك حاول – بجدع الأنف – أن يخلص نفسه محملاً المسئولية لإساءة الترجمة ومفرّقاً ما بين **myth** أى الأسطورة وما بين **mythology** وهى الخرافة

وقال المؤلف: "لقد كان يمكن لأركـون أن يقـول إنه لابد لكل الشـعوب من إيمـان وهـذا الإيمـان قد يكـون زائفـاً فيأخذ شكل الأسـطورة قبل أن يهـدى الله النـاس بالصـورة السـليمة عن طريق الـوحى والأنبيـاء والكتب السـماوية الـتى تسـتخدم التصوير الفنى والمجاز أو تبدأ من مستوى القـوم الـذين نـزلت

لهم، ولكن مضـمونها يختلف تمامـاً عن الأسـطورة، لأنه يـبرز الحقيقة العظمى "الله"

إن أركون كان يستطيع أن يقول هذا لو تحرر من المناخ الأوربى وطريقة أوربا فى دراسة الأديان التى تستبعد تماماً فكرة الله وتأخذ بما وجدته لدى القبائل البدائية فى أفريقيا والأمزون والهند الخ.. أو فى كتب السحر والتنجيم.. وهذا عندها هو "الأنتربولوجى" العلمى.

ورغم كل ما يمكن أن يؤخذ على أركـــــون فإنه الوحيد الـذى اسـتطاع أن يصد بحكم مكانته الرفيعة وإيمانه الإسـلامى غائلة كثـير من المستشـرقين وأن يعـرض وجهة نظر إسـلامية يتقبلها الفكر الغـربى، وأنه توصل إلى نتـائج سـليمة فى نقـده لبعض مسالك الفقهاء التقليديين.

على كل حال فإننا نعتقد أن أركون كبقية الذين تأثروا بالثقافة الأوربية وانبهروا بها حيناً من الدهر يعيد بين الفينة والفينة النظر فى أفكاره وينتهى إلى إشراقات تختلف عما ذهب إليه عندما كان مأخوذا بكليته بالثقافة الأوربية وأنه بعد رحلته الطويلة مع "فوكو" وأمثاله من أنصار التفكيك والحفر أنتهى إلى أن "التأويل" هو مفتاح المعالجة القرآنية "فالقرآن كتاب ينص على التأويل ويقبل التأويل ولا يكتنه إلا بالتأويل فهو نص تأويلى، أو لنقل نص التأويل بامتياز".

وتعرض الفصل لما ذهب إليه الدكتور نصر حامد أبو زيد فى كتابه "مفهوم النص" ورفض بقوة أن يطلق على القرآن تعبير **"منتج ثقافى"** الذى جاء فى كلامه.

"إن النص فى حقيقته وجوهره منتج ثقافى والمقصود بذلك أنه تشكل فى الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بديهية ومتفقاً عليها فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقى سابق للنص يعود لكى يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر – من ثم – إمكانية الفهم العلمى لظاهرة النص. إن الإيمان بالمصدر الإلهى للنص ومن ثم

لإمكانية أى وجود سابق لوجوده العينى فى الواقع والثقافة أمر لا يتعارض مع تحليل النص من خلال فهم الثقافة التى ينتمى إليها. ولنقل بعبارة أخرى إن الله سبحانه وتعالى حين أوحى للرسول بالقرآن أختار النظام اللغوى الخاص بالمستقبل الأول. وليس اختيار اللغة اختياراً لوعاء فارغ. وإن كان هذا ما يؤكده الخطاب الدينى المعاصر. ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة فى إدراك العالم وتنظيمه. وعلى ذلك لا يمكن أن نتحدث عن لغة مفارقة للثقافة والواقع أيضاً ما دام أنه نص داخل إطار النظام اللغوى للثقافة. إن ألوهية مصدر النص لا تنفى واقعية محتواه ولا تنفى من ثمّ انتماءه إلى ثقافة البشر".

ومن تحليل هذه الحقائق يمكن أن نصل إلى فهم علمى لظاهرة النص. إن القول بأن النص منتج ثقافى يكون فى هذه الحالة قضية بديهية لا تحتاج لإثبات ومع ذلك فإن هذه القضية تحتاج فى ثقافتنا إلى تأكيد متواصل نأمل أن تقوم به هذه الدراسة" أ هـ.

وكذلك نقده للمنهج التقليدى الذى يتبناه الخطاب الدينى المعاصر حيث تعطى الأولوية عنـد مناقشة النصوص الدينية للحديث عن "الله" عز وجل قائل النص ثم يلى ذلك الحديث عن النبى (المستقبل الأول) للنص ثم يلى ذلك الحديث عن الواقع تحت عناوين "أسباب النزول" و "المكى والمدنى" و "الناسخ والمنسوخ" إن مثل هذا المنهج إن اكتملت له أدوات البحث المنهجى من الدقة والاستقصاء بمثابة ديالكتيك هابط فى حين أن منهج هذه الدراسة بمثابة ديالكتيك صاعد. وعلى حين يبدأ المنهج الأول من المطلق والمثالى فى حركة هابطة إلى الحسى والمتعين فإن المنهج الثانى يبدأ من الحسى والعينى صعوداً. يبدأ من الحقائق والبديهات ليصل إلى المجهول ويكشف عما هو خفى".

وكـذلك ما جـاء فى كتابه "نقد الخطـاب الـدينى" "النص منذ لحظه نزوله الأولى أى مع قــراءة النــبى له لحظة الــوحى

تحول من كونه نصاً إلهياً وصار فهماً إنسانياً" لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل، إن فهم النص للنبى يمثل أولى مراحل حركة النص فى تفاعله بالعقل البشرى، ولا التفات لمزاعم الخطاب الدينى بمطابقة فهم الرسول للدلالة الذاتية للنص ص 27 وفى ص 105 يقول "وفى قضية ميراث البنات بل فى قضية المرأة بصفة عامة نجد الإسلام قد أعطاها نصف نصيب الذكر بعد أن كانت مستبعدة استبعاداً تاماً وفى واقع اجتماعى اقتصادى تكاد تكون المرأة فيه كائنا لا أهلية له وراء التبعية الكاملة بل الملكية التامة للرجل أباً ثم زوجاً. اتجاه الوحى واضح تماماً وليس من المقبول أن يقف الاجتهاد عند حدود المدى الذى وقف عنده الوحى وإلا انهارت دعوى الصلاحية لكل زمان ومكان.

ويقول "الواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره ومن الواقع يكون النص ومن لغته وثقافته صيغت مناهجه..

فالواقع أولاً.. والواقع ثانياً.. والواقع أخيراً وإهدار الواقع لحساب نص جامد ثابت المعنى والدلالة يحول كليهما إلى أسطورة" أ هـ.

لقد رفض كتاب "نحو فقه جديد" كل هذه الأقوال ورأى أنها دعاوى لا تقوم على أساس وأن من أكبر الخطأ والتجاوز أن يقال عن القرآن الكريم أنه منتج ثقافى وقال :

ولا يمكن لأحد أن يلوم أو ينتقد الكتاب المسلمين، إذا جعلوا من حقيقة أنّ القرآن من عند الله. نقطة البداية الحاكمة للموضوع وأخذوا يهبطون منها إلى الرسول عن طريق الوحى وهى الطريقة التى وصفها الدكتور نصر أبو زيد بأنها "ديالكتيك هابط" وليس من ذنب المسلمين إذا أخذوا به لأن القرآن "نزل" و "أنزل" من السماء وهما صيغتان للنزول تكررتا فى القرآن. وليس أمام الكاتب المسلم إلا أن يعترف بهذه الحقيقة أو أن يعطى فكرة الله "أجازه" عندما يكتب أو يخلعها قبل أن يجلس على مكتبه.

وكذلك يرد على دكتور حامد نصر أبو زيد :

فكيف يمكن أن يتحول النص منذ لحظة نزوله الأولى أى قراءة النبى له لحظة الوحى من كونه نصاً إلهياً إلى فهم إنسانى لأنه تحول من التنزيل إلى التأويل..

إن القرآن لم يتحـول أبـداً ولكن الـذى تحـول ويتغـير هو فهم الناس له، وهو تفسيره، هو تأويله.

وتفسيره وتأويله شئ. والنص نفسه شئ آخر، ويمكن دون حرج أن ننقد التفاسير ما شئنا وأن نحكم عليها بقوانين الظواهر الاجتماعية ولكن هذا لا يمس أبداً النص نفسه الذى يحتفظ بكل قدسيته، لأنه لم يحدث له ما يمس هذه القدسية ويظل دائماً ملهماً خلاقاً.

إن أزمة الدكتور نصر وإضـرابه والـدكتور طه حسـين من قبل يعـــود إلى اســـتغراقهم فى فكر المستشـــرقين الـــذين يستبعدون بحكم علمانيتهم ومنـاهجهم أى ذكر لله فى كتابـاتهم وبالتـالى يعـاملون القـرآن كـأى كتـاب وأى "منتج ثقـافى" وقد تخالطهم (الدكتور طه حسـين ونصر أبو زيد وأمثـالهم) رغبة ما بين الزهو والجرأة فى اختراق المقدسات وابتداع المنـاهج رغم أنهم فى هذا إنما يمثلون أسـوء صـور التقليـد. والقـارئ لكتـاب "فى الشعر الجاهلى" يلمس أن الفقرات المشبوهة التى جلبت على مؤلفه العـار لم يكن لها ضـرورة على الإطلاق إلا التفـاخر بالشجاعة وتجاوز الحدود والجرأة على القرآن.

لقد أعاد التاريخ نفسه مع هؤلاء السادة بحيث نهجوا النهج الذى نهجه أسلافهم المعتزلة الذين فتنوا بالفلسفة اليونانية فابتغوا سبيلاً للبرهنة على وحدانية الله وقداسته غير السبيل الذى رسمه القرآن فتوزعتهم الطرق أمشاجاً وضللتهم الدعاوى التى تعود إلى فلسفة وثنية أصلا وفرعاً قلباً وقالباً.. وليس هناك فرق بين كلمات الدكتور نصر أبو زيد "إذا كان الكلام الإلهى فعلاً فإنه ظاهرة تاريخية لأن كل الأفعال الإلهية أفعال "فى العالم" المخلوق المحدث أى التاريخى والقرآن

الكريم كذلك ظاهرة تاريخية من حيث أنه واحد من تجليات الكلام الإلهى وإن يكن أشمل هذه التجليات لأنه آخرها". وبين المعتزلة الذين ذهبوا إلى "بشرية" القرآن وأن القرآن من حيث هو كلمات وحروف وأصوات ومداد مكتوب فى صحف هو محدث مخلوق. بل هو بهذه الصفات فعل للإنسان المتكلم به والقارئ له والكاتب لآياته.

والقضية فى حقيقتها بالنسبة للمعتزلة المفتونيين بمنهج الفلسفة اليونانية وللمحدثين المفتونين بمنهج الفلسفة الأوربية هى محاولة للجمع بين عقيدتهم كمسلمين يؤمنون بالله وهذه الفلسفات التى تستبعد الله وهى محاولة شيطانية تعسة محكوم عليها بالفشل. وما دام القرآن كلام الله – كما يؤمن كل مسلم – فإن أى محاولة لتقصى كيفية حدوث ذلك أو طبيعته تخرج عن إطار العلم المادى والفلسفة الدنيوية وتصبح جزءاً لا يتجزأ من عالم الغيب الذى استأثر به الله تعالى ولا داعى للافتيات عليه. وقد عالج القرآن نفسه هذه النقطة عندما تعرض لشكوك المرجفين فى قوله تعالى ﴿ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ ﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾.

والغريب المؤسف فى أمر الــدكتور نصر أبو زيد أنه جمع بين أسوأ ما يقدمه المستشرقون، وأسوأ ما يقدمه الأسـلاف !! أســوأ ما يقدمه المستشــرقون لأنهم يعــالجون القــرآن بعد استبعاد الله ! باعتباره منتجاً ثقافيـاً، وأسـوأ ما يقدمه الأسـلاف لأنه تقبل ما وضـعوه من أفـانين علـوم القــرآن وأقر النســخ، وأسباب الـنزول لأنهما فيما رأى تـدعم وجهة نظـره عن نسـبية الأحكــام القرآنيـــة. فى حين أن الكلام على أســباب الــنزول والنسخ من سقط المتاع، وما لا يقف أمام أى نقد أو تمحيص.

ومع هذا النقد القارص للدكتور نصر أبو زيد فـإن الكتـاب تضمن هامشاً يؤكد أن هـذا النقد لا يعـنى الموافقة على تكفـير أو محاكمة أو مصادرة "لأننا نستبعد تماماً دعـوى التكفـير حـتى

بالنسـبة لمن يقر على نفسه بـالكفر لعـدم الاختصـاص لأن الله تعالى هو الذى يفصل فى هذه الأمور يوم القيامة".

الفصل السابع فهم الخطاب القرآنى كما يجب أن يكون :

هذا الفصل هو الفصل الإبداعى فى الكتاب وقد تضمن ما لم تتضمنه الكتب الأخرى التى صدرت عن القرآن وما أكثرها..

وقد بدأ بفقرة عن أن القرآن هو معجزة الإسلام وهو يتساءل "لماذا أراد الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام كتابا، ولماذا لم تأخذ شكل المعجزات التى حدثت للأنبياء السابقين، ويرد..

لقد أراد الله تعالى لمعجزة الإسلام أن تكون كتاباً لأنه لم يقم لهداية مجموعة محدودة من الناس مثل بنى إسرائيل أو تلك الأقوام التى تحدث عنها القرآن قوم هود وعاد وثمود وصالح وأصحاب الأيكة. لقد أراده الله للعالمين. أى لهؤلاء جميعاً وغيرهم من بقية البشر ولمن يأتى بعدهم أيضاً من أجيال ولا يتأتى هذا لو كانت المعجزة "حدثا" مثل إحياء ميت أو انفلاق بحر إذ سيقتصر تأثيرها على المشاهدين لها دون غيرهم ودون الأجيال التى تأتى بعدهم.

وأراد الله تعالى أن تكون معجزة الإسلام "كتابا" لأنه أراد أن يضع نهاية لعهد المعجزات الحسية وأن يبدأ عهدا يكون على البشـرية أن تعتمد فيه على فكرها وعقلها وليس على حواسـها والصورة الوحيدة لذلك هى أن تكون المعجزة كتابا يثير ملكـات الفهم ويؤدى إلى إعمال العقل.

وما أن أراد الله تعـالى هـذا حـتى أصـبحت اللغة العربية على وجه التعيين هى المرشحة لأن تكون لغة هذا الكتــاب دون بقية لغات العالم ذلك أن اللغة كانت بالنسبة للعـرب هى الشئ الوحيد الـذى يعـتزون به فلم يكن لهم فنـون معمارية تشـابه ما كـــان لـــدى قـــدماء المصـــريين من هياكل ومعابد أو ما نحته

المثالون فى اليونان من تماثيل ولم يكن لديهم التنظيم الإدارى والقانون الذى عرفه الرومان. كان الشئ الوحيد الذى يفخـرون به ويتبارون فيه اللغة وبالذات الشـعر وفى هـذا السـبيل أخـذوا القصائد الكبرى وعلقوها على الكعبة.

فإذا كان القرآن كتابا أى كلاماً يتلى فـإن مجـال إعجـازه كان لابد وأن يكون العرب حيث يكـون الكلام هو فخـرهم وكـان لابد أن يتوافر له قدر من الأعجاز الفنى اللغوى يزيد عن كل ما بلغوه وإن لم يكن هذا الأعجاز اللغوى من القرآن هو كل نصيب عرب هذه المنطقة منه. لأن إعجـاز المعـانى النبيلة والسـامية، فى القرآن لا يقل عن إعجـاز الصـياغة والأسـلوب وإنما هو أمر كان لابد منه لأن القرآن إنما أنزل للبشرية عامة، وإن نزل على العرب أولا.

وعلى كل حال.. فلعل فى اللغة العربية أسراراً أخرى لم نعلمها حتى اليوم.

ويسـير الفصل فيكشف عن أن معـنى المعجـزة بالنسـبة للقرآن يختلف فى مـدلولها ومضـمونها عما هما فى المعجـزات الأخرى التى كانت تأخذ شكل الخـوارق الطبيعية كالنـار الـتى لا تحرق إبراهيم والبحر الـذى ينشق لموسى والميت الـذى يحـيى على يد عيسى.

فالقرآن كتاب ولا يمكنه بحكم هذه الصفة أن يخرق قوانين الطبيعة فضلاً عن أنه جاء ليختم وينهى عهد المعجزات الخارقة للطبيعة.

ومن هنا جاءت المفارقة: المطلوب أن يحقق القرآن الإيمان دون أن يغير قوانين الطبيعة الذى كان هو مضمون المعجزة التقليدى والذى يكفل الإيمان.

وقد حقق القرآن هذه المعادلة بأن تحول من الطبيعة الكونية إلى الطبيعة الإنسانية بمعنى أن يحدث المعجزة فى النفس البشرية نفسها بحيث تتحول إلى الإيمان.

وكان هذا يفترض أن تتأتى للقرآن قوة تأثير قاهرة تتغلب بوسـائلها الخاصة على قـوى الحفـاظ بحيث تخلق النفس خلقـاً جديدا..

ويتحدث الفصل عن "المهمة المستحيلة التى قام بها القرآن" فيقول :

كان على القرآن الكـريم أن يتعامل مع النفس الإنسـانية بطريقة تعيد تشكيلها.. وليست هذه بالمهمة الهينة.

فلنصور لأنفسنا سيدا رومانيا من بقايا الإمبراطورية الرومانية، وراءه أمجاد روما التى بهرت الأرض بسلطانها وقانونها وفكرتها عن الحياة والمجتمع وأن أفضل نظم السياسة هى ما يوفر للجماهير "خبزا وألعابا" وأن الرومان هم سادة البشر وأن الرق جزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعى الخ..

أو لنتصـــور حاكما فارســـيا يـــؤمن بما آمنت به النظم الفارســـية من تأليه لملوكها وتقســـيم لمجتمعها إلى طبقـــات محدودة وأن أى وهن يصيب هـذه الطبقـات لابد وأن يـؤدى إلى تحلل المملكة الشاهنشانية.

أو حتى نتصور شيخ قبيلة عربى يفخر بأنه أب عشرة وعم عشرة وخال عشرة وأن ألف سيف تغضب له لا تسأل لم غضب وهو يرى الفخر كل الفخر فى سبق جواده واحتساء خمره.

عندما يأتى رسول إلى هؤلاء ويجعل أول كلمة فى دعوته **"لا"** ويؤكد أنهم إنما يعبدون أوثانا ويخلقون إفكا وأن نظمهم تلك حطب جهنم وأنهم جميعا عباد الله سواسية لا فضل للسيد على المسود إلا بالتقوى والعمل الصالح وأن الله تعالى سيبعثهم بعد الموت ويحاسبهم على ما قدمت أيديهم.

هل يمكن للسيد الرومانى والحاكم الفارسى وشيخ القبيلة العربى أن يؤمن أو يتجاوب مع دعوة هذا الرسول ؟؟

ولكى تزداد العملية صعوبة. فقد كان مطلوباً من القـرآن أن يقوم بهذه الثورة فى النفس البشرية لا بالنسـبة لمعاصـريه

من العرب أو الروم والفرس ولكن أيضاً بالنسـبة لكل الأجيـال الآتية ولكل الشـعوب على وجه الأرض على اختلاف ما سـيأتى به التطـور من نظم. وأن تسـتمر قـوة الـدفع الـذاتى لهـذه المعجزة مع تـوالى العصـور بحيث لا تنفد أو يقـال انتهى زمانها وخمد أوارها وانطفأت شعلتها.

إنها المهمة المستحيلة بكل المعايير – فقد يمكن – مع الصعوبة البالغة تحقيق الثورة فى النفس بالنسبة لجيل أو حتى للأجيال المتوالية فى شعب. ولكن أن يحدث هذا بالنسبة للأجيال المتوالية فى الشعوب المتعددة فهذا هو المستحيل.

ولكن القرآن حققه. فما دام القرآن هو معجزة الإسلام فلابد أن يكون هناك نوع من التجاوب والتواءم ما بين القرآن والإسلام ولابد أن تكون معجزة الإسلام بمثل حجم الإسلام وأن تنهض برسالته. وما دام القرآن من الله تعالى فلن يعجز الله تعالى أن يوفر له هذه القوة الخاصة.

ومن هذه الحقيقة وحدها والتى لا تتأتى لغير القرآن المنزل من الله يحتفظ القرآن بقوة الخلق والإبداع والتأثير ويعجز كل ما سواه عن أن يصل إلى ما وصل إليه.

وتقصى الفصل مفردات وعناصر الأعجاز التى مكنت القرآن من تحقيق رسالته فارتأى أن القرآن أولاً كتاب فن وإن أبرز عناصر إبداعه وهو التصوير الفنى والنظم الموسيقى والمعالجة السيكولوجية يدخل فى إطار الفن وأبرز بوجه خاص النظم الموسيقى وأن الجملة القرآنية ذات وقع موسيقى عميق نتيجة التلحين الذى يطلق عليه التجويد، وربط ما بين هذا النظم الموسيقى والأثر المباشر الذى تحدثه التلاوة على المستمع، وهو ما لا يتأتى إلا بطراز رفيع من الموسيقى، وارتأى الكتاب أن التجويد فرع من الموسيقى يفترض أن تتعلمه بنات الكونسرفتوار وطلبة معاهد الموسيقى فيما يتعلمون لأنه المدخل للموسيقى الشرقية، واثبت الفصل النوتة

الموسيقية التى وضعها وليم لين فى كتابه "المصريون المحدثون" لتلحين الفاتحة.

ويعد ما جاء به الفصل عن النظم الموسيقى للقرآن فى 11 صفحة كبيرة إضافة منشئة.

ولا يقل عن هذا ما كشف عنه من ضرورة "التصوير الفنى" فى القرآن وأورد ما كتبه سيد قطب فى كتابه "التصوير الفنى فى القرآن" ولكنه عقب عليه أن سيد قطب رغم تفصيله لكثير من وجوه إعجاز التصوير الفنى فإنه "لم يؤصل قضية التصوير الفنى بمعنى لماذا يؤثر القرآن استخدام التصوير الفنى" وهذا ما رد عليه الفصل..

".. فى نظرنا أن هذا يعود إلى أمرين: **الأول..** أن التصوير الفنى هو الذى يؤثر فى النفس ويلمس الوجدان. والقرآن ككتاب هداية يعلم أن هذه هى ما تؤدى إلى الهداية وإلى التغيير النفسى. أما المعلومة والمعرفة المجردة فإنها على أهميتها تأتى بعد الوجدان والإرادة.

فهذه الأخيرة هى التى تسخر ملكة المعرفة وليس العكس فالناس قد تعلم الخير والشر ولكنها لا تستطيع أن تتحكم فى أهوائها وهى تقرأ ما يسجل على علب السجائر من أن التدخين ضار جداً بالصحة ثم لا ترتدع وتمضى فى تدخينها. ومن هنا كان من الضرورى أن يكثف القرآن المعنى، ويبرزه بصورة مركزة ويستعين بالألوان فضلاً عما أشرنا إليه فى الفقرة السابقة إذ يجتمع مع التصوير الفنى القرآنى النظم الموسيقى أيضا بحيث تبدو الجملة القرآنية لوحة مصورة ملونة ناطقة باللحن المحبب وبذلك يكون تأثيرها على النفس شاملاً وتحقق تماماً الغرض المطلوب.

والأمر الثانى.. الذى دفع القرآن لإيثار التصوير الفنى – خاصة فى مشاهد القيامة أو تقريب ذات الله تعالى وصفاته أو عن العالم الآخر من جنة ونار – أن الحديث عن هذه الجوانب لا يمكن أن يكون كفاحاً أو صراحة وأن العقل يعجز

واللغة تقصر عن استيعاب كنهها وماهيتها أو حقيقتها ومن أجل هذا أشار إليها القرآن بكلمة واحدة هى "الغيب" وجعل الإيمان بهذا الغيب شرطاً فى كمال الإيمان.

فما دام الأمر غيبـا، فلا يمكن الحـديث عنه كفاحا أو عيانا أو سـرداً أو مباشـرة فلا منـاص من الرمز والمجـاز لأنه يحل "الصدق الفـنى" محل الصـدق الفعلى الـذى تعجز الألفـاظ عن تحديده لو لم يكن غيباً، فما بالك وهو غيب.

وبهذه الطريقة يمكن أن نفهم آيات الصفات المستعصية التى مزقت الأمة لأنه لم يكن لديها فكرة عن الصدق الفنى.

فالقرآن يريد أن يعطينا فكرة عن عظمة الله تعالى فقال إنه سبحانه على العرش استوى.. وإن السماوات مطويّات بيمينه والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة.. وأنه يسمع النجوى ويعلم ما تسر النفوس.. وأنه كلم موسى تكليماً. كل هذا لأنه لابد للمؤمنين أن يأخذوا فكرة عن عظمة الله، ولا يمكن لهم أن يأخذوا الفكرة إلا عبر المألوف لديهم فلا يمكن أن نعرفهم على شئ بدلالة لا يعرفونها أو ليس لديهم فكرة عنها، ومن هنا قالوا: أسد فى الشجاعة.. وبحر فى السخاء.. دون أن يكون أسداً أو بحراً. وكان من الضرورى ذكر اليد والعرش الخ.. دون أن يكون لهذه الكلمات حقيقة مادية ولكن دلالة فنية تأثيرية.

ونرى أن من الخطأ الفاحش ما ذهب إليه بعض السلف من أن لله تعالى يداً ليست كالأيدى، وأن الاستواء معلوم والكيف مجهول الخ.. ونعتقد أن جلود الصحابة كانت تقشعر لو قيل لهم إن لله تعالى يداً ليست كالأيدى !! فالحقيقة أن استخدام اليد والرجل. والعرش الخ.. هو من المجاز ومن التصوير الفنى. وقد استخدم القرآن اليد استخداماً مجازياً "بين يدى رحمته" "بين يدى عذاب شديد" ﴿وقال الذين كفروا لا تؤمنوا بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه﴾ .﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾. فهل يمكن القول أن للقرآن يدين ليست

كأيدى البشر: وأشار القرآن إلى حديث جهنم للمذنبين.. وإباء السموات والأرض والجبال قبول الأمانة.. وسجود الشجر وتسبيح الطير.. ولا يمكن أن تحمل هذه كلها إلا محملاً مجازياً يراد به تحقيق التأثير المطلوب. أما ما وراء ذلك فلا يمكن الحديث عنه لأنه يخرج عن إطار المعرفة العلمية المادية.

فقضية التصوير الفنى لم تكن فحسب أسلوبا من أساليب التأثير على النفس ولكنها أيضا كانت الوسيلة الوحيدة لإعطاء الإنسان فكرة عن ذات الله تعالى وعالم الغيب الذى لا يمكن الحديث عنه بأسلوب علمى رياضى محدد.

ولما كانت قضية القرآن هى هداية النفس إلى الله تعالى فلا عجب إذا كان التصوير الفنى هو سدى القرآن ولحمته وأسلوب القرآن فى التقريب والتأثير.

وشرح الفصل العنصر الثالث من عناصر الأعجاز القرآنى وهو المعالجة النفسية والوجدانية فرأى أن الغرائز والعواطف والنوازع والشهوات هى أقوى ما يؤثر على الإنسان وأول ما يستأثر باهتمامه. فالإنسان – كل إنسان – بدائياً أو متحضراً عالماً أو جاهلاً أفريقياً أو أوربياً يخضع لغريزة البقاء فيحرص على البقاء والحياة، ولكى يحياً لابد وأن يأكل ويشرب ويأوى إلى مسكن ويحمى جسده من البرد والحر ويدخل – بعد أن كفل الأكل والشرب والبقاء له كفرد – فى التكاثر والعلاقة الجنسية التى تكفل البقاء للنوع، فشهوة الأكل لا تقل عن الشهوة للجنس سوى أن الشهوة للأكل تتجدد – على سبيل المثال – كل يوم بينما لا تتجدد الشهوة للجنس إلا كل أسبوع أو شهر لأن طبيعتها الخاصة هى التى تحدد أوانها. ولكن ما أن يحين هذا الأوان حتى تصبح هذه وتلك قوة طاغية. وما أن يبلغ الفرد الحلم حتى يصبح الجنس همّاً شاغلاً وعبثاً ثقيلاً لا يستطيع أن يتخفف منه إلا باتباع الطرق التى غرسها الله فى الإنسان لإشباع هذه الغريزة. وعندما يتم هذا يحس بالرضا والاطمئنان إن لم يكن المتعة والسعادة.

ويتفاعل العقل والذوق والعاطفة والعلم الخ.. فى إعطاء هذين المطلبين قوالب جميلة وتوشيتها وتزيينها بحيث يصبح الجمال والمظهر فيها أكثر ظهوراً من الحقيقة المادية الغريزية وراءهما.

تلك هى زهرة الحياة الدنيا من أبناء وأزواج وعشيرة وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها .

إن الإسلام يعـرف تمامـاً الطبيعة البشـرية كما هى وكما جبلها الله تعالى. وأنها كمادة النفط يشتق منها الإسفلت الثقيل الكثيف. كما يشتق منها البـنزين الطيّـار الخفيـف. وهو يبـدأ من إســفلت الواقع ويتصــاعد مع هــذا الواقع وبه حــتى يصل إلى البـنزين الطيّـار. وهو يعلم أن هـذا الإسـفلت لابد منه وإن كـان للوطأ. ويجب أن يحمد باعتباره موطأ للأقدام لـولاه لما وجـدت الأقدام ما ترتكز عليه ولما انطلقت الطـائرة من مـدرجها. ومن هنا عنى القرآن بـالغرائز وأثـاب على الغريـزة الجنسـية عنـدما توضع موضعها وعندها دهش الصـحابة لـذلك وقـالوا: يا رسـول الله.. أيأتى أحدنا شهوته ويكون له أجر. قـال: أرأيتم لو وضـعها فى حـرام ألا يكـون عليه وزر. قـالوا: بلى. قـال فلم تحتسـبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال !!

وفى القرن التاسع عشر فحسب كشف ماركس لأوربا عن أهمية العامل المادى فى تاريخ الإنسان وتأثيره الطاغى على الفرد والمجتمع، وبعده بمدة كشف فرويد عن قوة الغريزة الجنسية وأنها فى أصل تصرفات الأفراد رجالاً ونساءً. ومن المحتمل أن كلاً من ماركس وفرويد بالغ فى أهمية العامل الذى أكتشفه – ولكن من المسلم به أن إعطاء هذين العاملين حقهما من الأهمية ساعد على اكتشاف النفس الإنسانية ومعالجتها وملأ الفراغات الكثيرة التى كانت تتبدى أمام الباحثين. بحيث لم يعد ممكنا معالجة النفس الإنسانية اليوم إلا بعد أن يوضع فى الاعتبار ما جاء به ماركس وفرويد.

وقد سبقهما الإسلام عندما اعترف بأهمية الوازع المادى والغريزة الجنسية وعندما وضع السياسات لتنظيمهما لا لتجاهلهما أو كبتهما.

وفى مواجهة غريزة الحياة والحرص على البقاء وهذا الوجود الذى حققه الإنسان بجهده اليدوى وعقله النظرى وذوقه الفنى يقف الموت يترصد للإنسان ولا يفيد فيه التشبث بالحياة أو مطاولة الأحداث فلابد منه وإن طال المدى والموت وحده هو نهاية الحياة الدنيا التى لا يمكن لها إرجاعاً.

وفى الطبيعة البشــرية ميل لــدفع فكــرة المــوت بعيــداً. خاصة عندما يكون الإنسان فى مقتبل العمر وأمامه الحياة. كما أن محوطات الحياة وواجباتها وما يشـغل به كل فـرد نفسه من منصب أو هواية أو تجارة أو زوجة يحبها أو أولاد يرعاهم كل هذا يملأ وقته ولا يجعل له فراغاً للتفكير فى غيرها.

يأتى القرآن ويذكرنا بالموت وأن كل متاع الحياة الدنيا الذى نسعد به يصبح هشيماً كأن لم يغن بالأمس. ثم لا يقف عند هذا ولكن – وهذا هو المهم – يؤكد أن بعد هذا الموت حياة وأن الأجساد التى تحللت وأصبحت تراباً ستبعث من جديد. وستقف موقف الحساب أمام ميزان يحصى كل الحسنات والسيئات كبيرها وصغيرها جليلها ووضيعهاً وتبعا لنتيجة هذا الحساب يساق الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار.

وهناك فرق جوهرى وحاسم بين فـرد يـؤمن بـأن المـوت هو نهاية الحياة والوجود وأنه ليس ثمة بعث أو نشور، حساب أو عقاب وأن الإنسان لا يعيش سـوى مـرة واحـدة وبين فـرد آخر يــؤمن بــالبعث والنشــور والحســاب والعقــاب. إن الفــرد الأول يجعل همّه أن يعيش حياته "بـــالطول والعـــرض" وأن يســـتمتع بقدر ما يستطيع وأن يعبَّ من الشهوات عبّاً حتى يكون قد شبع منها عنــدما يأتيه المــوت فلا يأسى على شــئ. أما الفــرد الآخر فيعلم أن الحياة الدنيا ليست مجرد استمتاع وشهوات وأنه ليس

حراً فى أن يتبع ما تهوى الأنفس على اختلافه، وأن أى تصــرف يجــاوز دائــرة القصد والاعتــدال يحاسب عليه وأن الله تعــالى مطلع على الأفئدة، عالم بالسرائر.

* * *

على أن كل هذا الحديث عن عناصر الأعجاز القرآنى إنما يــراد بها فى النهاية "الهدايــة" وهــذه الهداية لا تتم إلا بــأمرين هما..

إعمــال العقل والإيمــان بــالقيم الســامية وفى حقيقة الحال فإن محصلة التأثير المتأتى من التصوير الفنى، والنظم الموســيقى، والمعالجة الســيكولوجية كلها تصب فى النهاية فى التوجيه لإعمـــــال العقل وللإيمان بالقيم الســامية، وبهـذا تكـون الهداية هداية مبصرة بينة، وفى الوقت نفسه متحلية بالقيم، وهــذا هو ما يتمــيز به الــدين عن بقية المــذاهب الــتى قد تكون عقلانية دون قيم.. أو قيميه دون عقل.

وختم الباب بخاتمة جاء فيها:

خاتمة

ثمة خيط يربط أشتات هذا البــاب ويصل مقدماته بنتائجه ومن الخير أن نعرضه للقارئ حـتى يلم به مركـزاً فى صـفحات محدودة.

1- الواقعة الأولى أن القرآن ما إن تلى من فم محمد (فى مكة أو من فم مصعب بن عمير فى المدينة أو حتى قرأ من رق غليظ – كما حدث بالنسبة لعمر بن الخطاب – حتى آمن المشركون أو أصابتهم تلك الهّزة التى زلزلت عقائدهم القديمة وهيأتهم للإيمان الجديد.

وهذه الواقعة تكررت عملياً وثبتت مصداقيتها تاريخياً فى حالات متعددة بحيث يمكن أن نستخلص منها هذا المبدأ الهام **"إن القرآن نفسه ووحده يملك القوة على أن يحدث التغيير النفسى الذى يهيئ الإنسان لأن يخلق خلقاً إيمانياً جديداً".**

ومن الناحية النظرية والموضوعية فقد كـان لابد لهـذا أن يحـدث فما دام القـرآن هو معجـزة الإسـلام فيفـترض أن تملك هــذه المعجــزة فعاليتها وأن تســتمر هــذه الفعالية ما اســتمر القرآن وإلا فقدت المعجـزة صـفتها ووظيفتها ولم تعد معجـزة. كما يتفق هـذا مع مبـدأ إسـلامى أصـولى هو انتفـاء المؤسسة الدينية وعدم وجـود شـفعاء بين الإنسـان واللـه.. وهكـذا يتلاقى المفروض بالواقع..

فإذا تساءلنا عن سر هذه القوة..؟ فلا حل ولا إجابة إلا أن القرآن كلام الله ولابد أن يتضمن شعاعاً من نور الله وقبساً من حكمته وقدراً من قوة الخلق.

فالقرآن ليس مداداً فى قرطاس ولا هو كتاب كبقية الكتب إنه يحمل نفثة من روح الله عبر الوحى المقدس. وعندما كان الإمام على يصك المصحف بيده ويقول "أيها

المصحف حدثهم.." فإنه تنسّم شيئاً من هذا.. إن المصحف لن يحدثهم ولن ينطق.. ولكن فيه الحكمة وفصل الخطاب[1](1).

وهذا السر هو ما نجهل كنهه وطبيعته ولكن نلمس وجوده وأثره وهو من القرآن كالروح من الجسد لا نلمسها أو نعرفها ولكنها مع ذلك وراء كل حياة إنسانية.

أما ما يمكن أن نعرفه فهو "مفـردات" الإعجـاز القـرآنى وهى ما أشرنا إليه ما بين نظم موسيقى وتصوير فـنى ومعالجة نفسـية للطبيعة البشـرية وتوجيه نحو إعمـال العقل والالـتزام بالقيم السامية التى وضعها من عدل وخير ومحبة وتقوى الخ...

2- هنـــاك دلالة هامة تســـتمد من هـــذه الواقعة الثابتة تاريخيـاً والمفترضة نظريـاً، هـذه الدلالة هى أنه ما دام القـرآن يملك وحده قوة التأثير المطلوبة فإن كل التفاسير التى وضعت فى عهــود لاحقة هى مما لا داعى له بل يمكن أن تفتــات على نقـاء وخلـوص رؤية القـرآن نفسه أو المضـمون القـرآنى. وفى الحقيقة فإننا لا نقرأ فى هـذه التفاسـير تفسـيراً للقـرآن **وإنما نقرأ فهم هـؤلاء المفسـرين للنص القـرآنى ورؤيتهم الخاصة وما يلابس هـــــــذا الفهم أو الرؤية ويكتنفه ويختلط به من تـــأثر بالأوضـــاع والحالة النفســـية للمفســـرين ودرجة ذكـــائهم وفهمهم والظـــروف السياسية ونسبة وانتشار أو ذيوع الثقافة الخ..**

وهـــذه كلها عوّامل بعيـــدة عن القـــرآن نفسه وهى بالضرورة أدنى من القـرآن وما فائـدة أن نفهم الأعلى بـالأدنى، المحكم المنزل بالمتأثر بالقصور البشرى والوضع الاجتماعى.

---

[1] **(1) الإشارة إلى واقعة حدثت فى أعقاب انشقاق الخوارج بعد التحكيم. إذ أمر الإمام على بن أبى طالب أن لا يدخل إليه إلا القراء ثم جاء بمصحف إمام عظيم وأخذ بصكه بيده ويقول "أيها المصحف حدثهم الخ... أنظر القصة فى الفتح الربانى فى ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى ص 159 ج 23.**

ليس هنـــاك مبالغة فى القـــول: إن من أكـــبر أسـباب انحطـاط المسـلمين أنهم نبـذوا القـرآن وراء ظهورهم ووضعوا نصب أعينهم هـذه التفاسـير الـتى لـوثت صـفاء القـرآن وميّعت نظمه وجـاءت نقيض ما أراده من قيم ومبـــادئ. وأى شئ أدل على هـــذا من أن القرآن فى آيات عديدة تصــدع الحجر وتنطق البقر يؤكد الحرية فى الفكر والعقيــدة ويقــدس العــدل فى العمل والسياسة فى حين أن هـذه التفاسـير تـذهب عكس ذلك تمامـاً أو على الأقل تتجاهل ذلك [1].

3- إذا كان هذا هو شأن التفاسير فيمكن القول من باب أولى إن كل ما وضعه المستشرقون من بحوث وكل ما سودوا به الصحف عن القرآن هو مالا يعتد به فى قليل أو كثير. وهو مرفوض تماماً لأنه يقوم على منهج خاطئ. فالمستشرقون جميعاً سواء من يدعى المسيحية أو اليهودية هم فى حقيقة الحال أبناء الثقافة الأوربية الوثنية التى رفضت "الإله" وأحلت الإنسان محله وليس إيمانهم المسيحى أو اليهودى إلا مكاءَ وتصديه – بتعبير القرآن – وعلى كل حال فإنه إيمان لا يفيد فى دراسة تستبعد أول ما تستبعد أن القرآن من الله ونجد المستشرق المتعاطف المتجاوب هو الذى يذهب إلى أن الرسول لشدة إيمانه بهذا المعتقد أنتهى به الأمر أن آمن أنه من الله !.

فأى قيمة لدراسة عن القرآن تبدأ بإنكار أنه من الله ؟!! إن القرآن – تعالى عن هذا – يكون أكبر أكذوبة وتصبح آياته كلها سلسلة من الزيوف والأكاذيب.

وهذا هو ما يحاول أن يبيعه لنا المستشـرقون تحت قنـاع البحث العلمى وما مثل المستشـــــرقين إلا كجماعة تبحث عن

---

[1] **(1) أنظر تفصيل ذلك فى الفصل الأول من الجزء الثالث ص 115 إلى ص 126 من هذا الكتاب..**

طريقها وسط غابة فى ليلة مظلمـة. تعمد إلى المصـباح الوحيد الذى يضئ مفـارق الطـرق فتحطمه مخافة أن يـؤثر على حرية البحث!! فهى تفضل أن تكون كحاطب ليل يخبط فى الظلمات على أن تستنير بما يهديها سواء السبيل.

ومن هنا فإننا لن نخسر شـــيئاً إذا وضـــعنا مجلــــدات المستشـرقين عن القـرآن جنبـاً إلى جنب التفسـيرات القديمة فى الركام المتعالى لسقط المتاع التاريخى.

4- للقرآن خصوصية قوية تجعله يستعصى على التطويع والاحتكار والاحتواء. كما لا يمكن لأى منهج بمفرده أن يفسر القرآن فالمنهج اللغوى لا يفيد إلا قليلاً لأن القرآن الكريم له لغته الخاصة واستخداماته الاصطلاحية ومعانيه التى لا تفهم إلا من خلال السياق أو بالاستخدام المتكرر لها. وقد قال الله تعالى عن القرآن أنه "أنزل بلسان عربى أمين" لأن الصفة التى حكمت عربيته أنه "مبين" وهذه الإبانة هى ما تأتى به الصياغة القرآنية. وليس المدلول اللفظى. وقد دفع المنهج اللغوى باحثاً نابهاً كالدكتور شحرور إلى كثير من المآزق التى أشرنا إليها. وقد يكشف المنهج العلمى أو حتى العددى عن أسرار عديدة وثمينة يتضمنها القرآن. ولكن هذا ليس إلا جانباً. وبالمثل يعجز المنهج النفسى – السيكولوجى – أو الفنى أو الموسيقى عن الإحاطة بكل أقطار القرآن.

وهذه الخصوصية تجعل الموقف الأمثل أن نتعلم من القرآن لا أن نفتات عليه ولا أن نحاول أن نفككه كما يفك الساعاتى ساعة.. والميكانيكى آلة.. أو أن نتعالى بعلمنا. فقد قال القرآن ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شئ عليم﴾ {160 الحجرات}. ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ {85 الإسراء}.

وكل باحث وكل مفكر يقف أمام القرآن كما يقف الصياد أمام المحيط الهادى الذى يمتد لأكثر من كل اليابسة فى الكـرة الأرضية ولعمق يصل إلى ستة آلاف متر من المياه بعضها فـوق بعض، فماذا عسى هذا الصـياد أن يبلغ ولو طالته موجة لأغرقته وابتلعته فى ثوان.

5- ومن الخصوصـــــية القرآنية أن تحمل اللفظة القرآنية أكثر من معنى وأن يوجد أكثر من مسـتوى للأحكـام وليس هـذا اختلافـــاً ولكنها المرونة اللازمة لنظـــام يطبق على العصـــور والأجيال والشـعوب والأقـوام، وهـذه التعددية لا يضـرب بعضـها بعضاً وإنما تكمل بعضها بعضاً، وكل من يمسك بشىء منها فهو على هدى.

وقد يستخدم القرآن لفظة ليست هى أمثل الكلمـات من ناحية اســتدلالها اللغــوى على المعــنى ولكنها أمثل الكلمــات اتساقاً مع النظم الذى يعطيها معناها الخاص ويفترض أن تفسر طبقاً لهذا المعنى وليس لمعناها اللغوى.

وقد تصور بعض الباحثين أن مراجعة القرآن طبقاً لتاريخ نزوله ووضعه فى المصحف على هذا الأساس يقدم فهماً أدق للإسلام وهذا أثر من آثار معالجتهم للكتب العادية أو مبادئهم البحثية، أما القرآن فلم يكن يقدم أو يؤخر لو وضع فى المصحف طبقا لنزوله..! لأن المعّول ليس هو المعلومة أو التاريخ. ولكن التأثير، والتأثير يحدث أعظم ما يحدث طبقاً لما وضعه الرسول أولاً وتبعاً لإلحاقه آيات نزلت فى مكة فى سورة مدنية والعكس بالعكس فالأمر ليس كما ذهب إليه المستشرقون.

وقد يشـتط الخيـال بفـرد فيقـول أما كـان الله عـزّ وجل يستطيع أن يقدم إلينا قرأنا أكثر إعجازاً مما قدمه ؟

فنقول بلى. وما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الأرض ولكننا نحن الذين لم نكن لنصل إلى أكثر مما جاء به القرآن بالفعل. وما جعله "بداية المجتهد.. ونهاية المقتصد" وفيما بين هذين يمكن أن تمرح العقول والأفئدة أما ما هو أعلى فقد يعجز عن استيعابه الفهم الإنسانى ولا يكون ثمة حكمة من إنزاله.

6- أخيراً فإن القرآن استهدف أن يخلق الإنسان خلقاً إيمانياً جديداً وكانت وسيلته إلى ذلك التأثير على الطبيعة البشرية بالنظم الموسيقى والتصوير الفنى والمعالجة النفسية بحيث يهيئ النفس الإنسانية وكأنه الحداد الذى يحمى الحديد حتى يطوعه ولكن القرآن لا يقرع النفس كما يقرع الحداد الحديد المحمى بالمطرقة ولكنه يسوق النفس الإنسانية سوقاً جميلاً للإيمان بالأصلين العظيمين للإسلام كما يعرضهما القرآن: إعمال العقل فى كل ما يتعلق بالدنيا والإيمان بالقيم والمبادئ النبيلة السامية بحيث تدخل النفس المطمئنة راضية مرضية جنة الإيمان.

إن تقدم البشرية يتطلب جهوداً وعلماً وعملاً فى كل الميادين ولكن التقدم يقف فى النهاية على أساس النفس المطمئنة والفرد المؤمن. فإذا تهيأ هذا فإن كل صعوبات "التنمية" والتقدم تهون.. فالإنسان أولاً. والإنسان لا يعالج قسراً كما تفعل النظم الشمولية ولكنه يعالج معالجة إيمانية قدمها القرآن فى أبدع تقديم..

صدر الجزء الأول من نحو فقه جديد

فى ديسمبر 1995 وضم 208 صفحة..